ورطة العنوان المناسب

رواية

لمصطفى ربايعة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/٨/٢٩٢٢)

٨١٣,٠٣

الربايعة، مصطفى محمد

ورطة العنوان المناسب / مصطفى محمد الربايعة .- عمان:المؤلف،

٢٠٢٠

( ) ص .

ر.إ. : ٢٠٢٠/٨/٢٩٢٢.

الواصفات : /الروايات العربية/الأدب العربي//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

MERIT MODERN PRESS
الاستحقاق للطباعة الحديثة

Amman - Jordan
Tel : 00962 6 5604460
Fax : 00962 6 5604460
P.O.Box. 1095
17110 Jordan
E-mail : Meritm47@yahoo.com

الإهداء

إلى

الشَّخصيات

التي تلاحمت،

لنهوض هذا العمل

من العدم ..

"لا أستطيع أن أجزم بأي شيء

كلما حدّقتُ بثابتٍ

تحرّك ومشى

حتى التماثيلُ اللعينة

صارت تركض في متاعبي" ..

زياد العناني

التقديم

هنا في هذا العمل يؤرِّخُ البطل لحظاته غير المهمة لغايةٍ معينة لا يعلمها سواه، إنه استنطاقٌ للنفس الصامتة على المدى الطويل، يمكن تصنيفُ هذا العمل لسردٍ ما بعدَ حدَاثَوي حيث الشخصيات متجاوزةٌ لذاتها وللزمان والمكان وإن كان العملُ الفلسفيُّ محوريتُه بإبداع المفاهيم بحسب جيل دولوز وغاتاري فإنّ العمل الأدبيّ بالمقابل يتمحور حول ابتكار الشخصيات لدرجة أنّ بعض المؤلفين والروائيين تتجلّى شخصياتهم في شخصيات أبطالِ رواياتهم كأن نقولَ الإخوة كارامازوف دوستويفسكي أو دون كيشوت ميغيل دي ثيربانتس أو الحارس في حقل الشوفان سالينغر أما الرواية التي بين أيديكم تجاوزت بنية الشخوص وأسمائهم حيث لا أسماء هنا!

تبدو هذه الرواية تمرُّدًا على الواقع والملموس كما يمكن للعمل الروائي أن يتفرَّد ليصل بتفاصيله إلى صورةٍ أكثر شاعريةً

وتجرُّدًا منذُ بداية حياة الشخصية الرئيسية المتمثِّلة في روح الوحدة والغربة المفرطة عن كلِّ شيءٍ مرورًا إلى التجربة شبه الإيروسية حتى ينتهي بنا المطاف إلى نقطة البداية ذاتها حيث نقطةُ البداية هي في حدِّ ذاتها نقطة النهاية كما في صخرةِ سيزيف، لكن في النهاية علينا أن نذكِّر أنفسنا بأننا سعداءٌ ولكن حتى هذه المحاولة باءتْ بالفشل عند قول البطل:"تُدغدغني عاطفةٌ مُميتةٌ تكرِّر التساؤل فيَّ، يا ترى كيف لي أنا التالف أن يغزوَني هذا الهيج من العنفوان؟! حيث أني ظننتُ كلَّ الظن أنهُ تجمهرٌ لجملةِ عصافير حولَ إيناءٍ عميقٍ وفارغ". في هذا العمل أنتَ لن تقع في ورطة العنوان المناسب فحسب بل أيضًا في ورطة التملُّص من تفاصيلَ عبقُها لا يكاد يستطيعُ الإفلات منك، فهي محاولةٌ يائسةٌ للفهم الصحيح لكلِّ ما يدورُ حولنا ممّا يدفعُنا في نهاية كلّ حدثٍ إلى التسليم والاستسلام لطبيعة الحياة التي تختلف عند البطل عما تبدو عليه عند الآخرين إذ يجزم هو بأنَّ طبيعة حياته مؤجَّجةٌ بالمصاعب التي من شأنها تعزيز فكرة الهروب التي راودته على مدار حياته لكن هناك أحداثٌ يجبُ أن تتمَّ لتُغيِّر جريانَ الأصل

من المعيشة وتدخلَ بها نحو حيواتٍ جديدة تزيد وتُنقِص من الثقل الأساسي للنفس، إنّ تجربةَ تحديث الحياة التي ساقت البطل نحو العاطفة الممتلئة بالتمنّي ما كانت في نظره إلاّ لهفةً ذاتِ بُعدٍ زمنيٍّ قصيرٍ مشتْ به نحو حياته الأولى بإدراكٍ أكثر وتوازنٍ أكبر.

لم تُكتب هذه الرواية بهدف التشويق الذي يُمتّع القارئ بل كُتِبَت بأقلام كلّ من حملَ معاناته على ظهره وألقاها في حضني حتى نبتَتْ منها بعضُ الحبكات التي تجمع تحت ظلّها الكثير من البشر الذين لا تعترف بهم الحياة كقصصٍ عظيمة ولا تعترف بهم الأعمار إلا كتاريخٍ للنهاية البسيطة التي ستحلُّ بالجميع.

مصطفى ربايعة

حياةٌ طبيعية

(1)

أعرفُ تأثير تلك الغفوة جيّدًا، ساعة من عصر يومٍ مشمس بشبابيكَ مفتوحةٍ على الحرارة أملًا في استقطاب نسمةِ برودةٍ من فم الرطوبة، قبل ذلك بقليل كان الرجاءُ المغرغر بالعرق الذي رسم حدودَ جسدي على مضجعي الأبيض بألّا أنام وأن أُصدَّ النعاس الطفيليّ؛ لمعرفتي الجيّدة بحجم العواقب اللّاحقة لهذه السّاعة، إذ تتسابقُ من حولي بعض الحشرات الهاربة، ثم يتملّكُني العطاس الناتج عن تسلُّل الشمس إليّ فتتجّه الأبصار نحو ظلامٍ دامس، عندها يستسلمُ جسدي للذة النوم حالُه حالُ الصّبور المتماسك الذي ينهار بسهولةٍ بعد صراعٍ بسيط مع مؤثّرٍ داخليٍّ أو خارجي.

أقول هذه المقدِّمة تمهيدًا لوصفٍ دقيق لشعوري المتكرر بين الناس التّابع لهذه الغفوة عند الاستيقاظ أو بتعبيرٍ آخر عند شقّ التعاسة دربًا لها في دماغي ثم جسدي، هكذا تُولَد النتانةُ الشُّعورية، وهكذا تكون بدايةُ تدفُّق الفكرة السلبية التي إنّ تعالتْ ستنقلبُ للرغبة الانتحارية، التكوّر والتعرق، دحض فكرة النهوض مع وجوبها والإلحاح العقلي على بترِ كلّ منطقة مستبدّة في التسبُّب بالألم داخل فسيولوجيا الجسد. سأُعبِّر بشفافيةٍ أكثر، ببساطة أُصابُ بالخوف والتوتّر الملازمان للوجه المتبرِّم وفقدانٍ للشهية ورغبةٍ في التدخين مع الاحتياط ممّا سيحصل بعد أول سيجارةٍ تدخلُ الفم، كأنّها معدنٌ مستطيل يدخل فمي مرورًا بالجهاز التنفسي إلى المعدة التي بدورها تُنتِجُ العصارة المختلِطة بآثار السيجارة المُرّة في حلقي ورغم ذلك أُدخنِّها ثم أنتقل للجانب المقابل للجدار، وللتَّخفيفِ على نفسي أضع يدي على الحائط الذي ينتجُ القليل من البرودة ثم أستعين بالمخيِّلة العاطفية وأُفكّر بالجميلات واحدةً تلو الأخرى وأبني القصص منها البذيئةُ ومنها الملوّنةُ بالحب والعاطفة، إنّها مجردُ غفوةٍ تسوقُ بأفلاكي

نحو التعجرف والمباهاة بالنفس المحطّمة؛ وذلك لكيْ أتأكَّد عبرها من قدرتي على الحب والتعبير المتأرجِّح بين فكرةٍ شاعريةٍ مؤثِّرة أبكي عليها وتفيضُ مشاعري بها وبين الكره المدجَّج بالبذاءة والانتقام، يتبع هذا الحوار نهضةٌ عفوية كأنّ الحديث ينقصُه خاتمة! أخشى ألّا تكون سعيدةً فتكون الرغبةُ في التبوُّل هي الخاتمة المثالية لمثل هكذا أفكار أحيانًا.

الطريقُ للاستحمام ممتلئٌ بالمخاوف فأنا بين مفترقِ طرق، إما أن أستحمَّ الآن وأنا بحاجةٍ لذلك فعلًا أو أن أدعَ ذلك لوقتِ نهاية العمل المسائي حيث يغريني أكثر أن أستحمَّ في وقتٍ متأخرٍ من الليل لارتخاء العضلات والنوم بطريقةٍ أسهل، كما أنّ الاستحمام الآن يبدو لي ككذبةٍ لا يسمعُها أحد، سأخرج منه إلى الحرارة التي لا تبالي بأيّ ظرف! وسيساعدُها الجسد ويتفاعل معها في جميع الأحوال، بمعنىً أو بآخر، سينزّ العرقُ خارجًا من كلّ مسامٍ في جسدي ولستُ أبالي لذلك فنحن نعمل ونستظلّ بمظلة الشمس العنيفة.

أسكنُ بجانب البحر القريب من الشمس والقريب جدًا من مكان عملي إذ لا أحتاجُ إلى أنظمة النقل السريعة أو البطيئة مثل الحافلة، أصلُ قبل موعدي وإن دخلتُ أباشرُ العمل دون النظر لفرق الوقت ودون تقاضي أيّة أجورٍ عليه، لذلك أقفُ أمام الفندق وأتناول كأسًا من العصير المصبوغ وأشربُه في المدّة المتبقِّية مع سيجارة؛ فذلك يشعرني برغبةٍ عارمة بالتقيؤ، إنِّي أشعرُ بهذا الشراب البارد مع السيجارة الحارة كأنِّي أتجرَّعُ المرارةَ الباردة عينَها، هكذا وقد بقيَ حوالي ثلاث دقائق حسب ساعة السَّاقي وعليه أعبر الشارع المزدحمَ ببطءٍ رغبةً بموتٍ وشيك يُطمئِنُ روحي المبتلَّة بشعور المذنب والعبد أو السّادي النتن، وعند اقترابِ سيارةٍ متهوِّرةٍ إليّ أُسرعُ فِرارًا من بطشها ومن شتائم صاحبها المضحكة والتي لا تخرج عادةً من فمه البرجوازي إلاّ في حالاتٍ كهذه، إنها واقعةٌ صعبةٌ عليه، سيتحدّث عنها في جلسات السّمر للأصدقاء ويُخبرهم بما شتمني ويعبّر بشدةٍ عن غضبه بتمثُّل الموقف بالتفصيل؛ مما يدفع الجالسين بقول المواقف

المشابهة مع الحرص على البهرجة والتفوُّق وملأ ما تبقّى من جلساتهم المملة والخانقة.

عند مدخل الموظفين تحديدًا أقف متأملًا ما سيحدث مثل كل يوم، بابُ الدخول هو ذاته، بابُ الخروج هو ذاته، ساعاتٌ مملّة تطفئ يومًا من أيامي البطيئة، في ركنِ تغيير الملابس أخلعُ ملابسي وأرتدي مكانها زيًّا بُنيِّ اللون يتكوّنُ من قطعةٍ واحدة تُميِّزنا عن غيرنا من الموظفين وقد خُصِم ثمن هذا الزَي من المُرتَّبِ الأول بمبلغٍ مرتفعٍ يساوي ثمنه العديد من القمصان والكتب التي أشتريها من فترةٍ إلى أُخرى! لكنْ ماذا سيحصل للمرء إن ترك عمله والتزامه خلفه وفرَّ مُسرعًا للحياة؟ ماذا سيحصل إن ركلتُ الباب الزجاجيّ بقدمي المُولَعة بذلك؟ ببساطة، لنْ يحدث شيء! فقط ستتمُّ إقالتي من العمل وعليه سأُطرَدُ من السكن وسيُطاردُني الجوع وسأموت! ولذا ذهبتُ لأكملَ يومي بكل هدوءٍ بعيدًا عن أيّ فكرةٍ قد تخطر لي وتتمرَّد عليّ تمردًا متبوعًا بالحسم والخصم.

أعمل في الركن المكشوف من باحة الفندق الضخمة أنا وأربعةٌ آخرون فعملُنا يتمحور حول تنظيف برك السباحة من مخلفات الزوّار وتعقيمها بشكلٍ دوري بالمواد الكيماوية كما أننا ننظِّفُ الشاطئ التابع للمبنى من تلوُّثه بالقمامة وما يتبقّى من الأطعمة، أُشرِف عادةً على الشاطئ ومعي زميلٌ أُحبُ العمل معه على غِرار الآخرين من بلادٍ أخرى مجاورة، يعود أصلهُ حسب كتب الأنساب التي رجعتُ إليها إلى بلاد منفلوط بالديار المصرية من عائلةٍ عريقة تسمَّى(فضالة):

- لا أنسى ذلك الوقت عندما قلتُ له: *"إنّك عريقٌ في نسبك"*
- صدَرتْ منه ضحكاتٌ بدأتْ ببطءٍ حتى تعالتْ أكثر وأكثر لدرجةِ أننا توقّفْنا عن العمل ولفتْنا أنظار من حولنا، ثم استدرج ناظرًا إليّ بنبرةِ سخريةٍ حادةٍ وقال: *"يعني إحنا بشوات أهو"* ثم أخفض رأسه بالأرض وصمتَ قليلًا وقال:*"إحنا معندناش الكلام ده"*
- لم أدعْهُ يكمل ما سيقول وقاطعته قائلًا: *"نعم ولا عندنا! الأنسابُ اليوم مثل بروازٍ عتيق أو تحفةٍ قديمة تُوضَع بأجمل*

مكانٍ في المنزل، يملؤُها الغبار ويتمُّ تنظيفُها حالما أتى ضيفٌ غيرُ معتاد، فمهمةُ النّسب اليوم محدودةٌ لا يمكنُ أن يغترَّ بها الجائع"

- نظر إليّ مُحرِّكاً رأسهُ بالإيجاب، وتابع: *"آه جُعت يا باشا"*
- شردتُ قليلاً في قوله وسألتُ نفسي: *"تُرى لماذا نهتم إذًا؟ فالجوع لا يقتصر لديّ على الجوع العام الذي يعاني منه ثلثا العالم! وهذا لا يعني أني لا أعاني منه أنا أيضًا، لكنّ الجوعَ المقصود من نوعٍ آخر! جوعٌ للإبحار في الأنساب والتاريخ ومحاولة فهم العديد من الأشياء التي تحتاج للبحث والقراءة، وذلك ما أُسمِّيهِ الجوع المضادّ للجوع أو مضادّ للفناء والخلاص الكامل، نعم فالحاجة التي تكمُن داخلي أكبر من الحاجة التي نعيشُ في سعيها ممّا يزيدُ من صعوبة حياتي، لكن مع صعوبتها سأستمرُ في ملئها بهذه الأمور!"*
- نظر إليّ وقال: *"إنت بتقول حاجات غريبة"* وتابعَ دوامة صمته في عمله الدؤوب.

لم يعُد يمكنُنِي حينها أن أُكمِلَ الحديث في ظل هذه اللامبالاة، نعم لا يمكنُني إيقاعُه في إغراء الكلمات والهواجس التي أقلِّبُها ليلًا ونهارًا في دماغي وأقومُ بتطويرها بألبق هيئةٍ ممكنة! وفي النهاية هه! أرويها لمن سيسمعُني رغم ضعف التروِّي للمعارف! فإمّا أن يتمّ سماعي أو أن أدخلَ في دوامة الصمت العاجز عن فعل أيِّ شيء، أمّا تحقيرُ الذات وجلدها فالصمت فخٌ مدجَّجٌ بالمعاني التي تُطيحُ بالذات وتسحبُها إلى زوايا نتنة من الدماغ؛ لذلك سأتابعُ حديثي معه حتى لو لم يُظهر اهتمامه، فهذا لا يمنع من استئنافِ ما يعتبرُه رفيقي ترفًا فكريًا غير نافعٍ، وهذه نقطةٌ مهمةٌ، أنْ أدرسَ سبب ذلك، إنّ ما يملأُ دماغ هذا الرجل يتمحور حول الحاجات المهمة مثل إتمامِ عمل اليوم بسلامٍ تامّ مع عدم توثيق ذلك، فأيامُهُ مسيَّرةٌ نحو النسيان إذ لا علاقة لليوم بالغد وكذلك البارحة، ولكيْ لا أُشعِرَه بثقلي وأُبقيه في تشويقٍ معين حول شخصيتي أدعوهُ لاستراحةٍ قصيرةٍ تنتهي عندما نُنهي السيجارة التي دعوتُه لها بهدفِ تمرير بعض المواضيع التي ربما تهمُّه:

- *"أتعلمُ يا رفيق أنَّ تكاتُفنا سيؤدِّي إلى سرعةٍ في الإنجاز وعليه ربما سنغادر باكرًا إذا أنهينا كل شيءٍ بعملٍ مألوف؟"*
- *"لازم أروَّح أنا تعبان النهاردة وحاسسْ إن السكّر عالي والحرارة شديدة على دماغي"*
- هنا شعرتُ ببدايةِ نجاحِ استفزازِ ما لديه. ثم تابعت: *"نعم شديدة، والهواءُ المنبعث ساخنٌ لا يمكنُ أن يفي بشيء! لا أعلم لماذا يتجمَّعُ الناس من شتّى الأصول والمنابت هنا؟ فجميعُهم يتعرَّون تقريبًا لتأخذَ الحرارةُ بصمةً أقوى على أجسامهم ويقرعون أبواب البحر بدخوله وجعله مَلمًّا للأجسام الممتلئة بالشّعر والتي تعزِّزُها الأذرعُ الصُّلبة ويُريحُها التبوُّل في أعماق البحر الملوّن بالمخلَّفات الخاصة بهم!"*، في محاولةٍ عاصفةٍ بالتّركيز وانتقاء الكلمات نجحتُ في لفتِ انتباهه كما أنني شعرتُ بتأثُّره بكلامي هذا.

بعد تغلُّب الكلمات التي قلتُها للتوّ على عزمي بأن أكون ساكنًا طوال الطريق وصلتُ لتطبيق ما أنفقتُه من معلوماتٍ

مبرمجةٍ في دماغي، مسرعًا وغاض كلُّ شيءٍ عن كلِّ شيء، بكلّ قدمٍ أرفعها وأهيِّئُ الأخرى لعملها البسيط هاجسُ التوقُّف يراودُني لكن للوصول إلى إغراءاتٍ مقنعة أكثر، شارفتُ على الوصول ولم أُصادف أحدًا حتى الآن، إنّ للدخول نكهةً ممتعةً على عكس الخروج الإلزامي وهذا ما يشجِّعُ جسدي على السرعة والمرونة، نعم سينتهي العالمُ وراء هذا الباب وتبدأُ السِّيادة، سيادتي على الفكرة وعلى المكان، سأجمعُ النواقضَ في طبقٍ واحد ثم أتناولُه أو أرميه، سأمرِّرُ لعقلي أسلحتَه الحادة وأدعُهُ يدخل في حيِّز التطبيق دون ترددٍّ وحذر، لن أفكِّر في النوم وسأمرِّرُ فكرة النشاط لجسدي المنهك وأحاولُ كما يقولون أن أُوهمَه بأنني أفعلُ المستحيلات بكفاءةٍ ومن دون نومٍ كافٍ حتى فكلما كنتُ في ضجيج التعب وتعمَّقتُ في فكرة النوم وقلتُ في نفسي أني سأنامُ الآن لا محالة يحدث عكسُ ذلك؛ إذ يزدادُ عقلي نشاطًا ويزدحمُ بالهواجس المنسية والمبتكرة؛ لذلك سأحاول الإيقاع به بمفهومٍ عكسيّ، سأصطنعُ النشاط قدر ما أستطيع وأملأُ سكينتي الداخلية باللامبالاة لكل ما يرغبُ به جسدي وإن نجحتُ في ذلك

سأملك مفتاحًا ثمينًا يجرُّ خلفه مفاتيحَ أخرى أثقل وأثمن، إنّ لا مبالاتي بعدميةِ اللحظات والتصالح مع ذاتي من خلال اعترافي غير المباشر بأني أكذب عليها وأخدعُها أو بالأحرى دخولي معها في لعبةٍ لا بدّ أن يخسر فيها طرفٌ ما يجرُّني لأن أتوقع شبرًا من الخير.

هكذا تبدأ الألعاب الحاسمة دون لغةٍ واضحة مع غباشٍ في الفكرة والرؤية، بعد أقل من ساعة أتساءل هل فعلًا أنّ الأمور تحت السيطرة أم أنني في قالبٍ ذاتيٍّ من جديد وفي رؤيتي لها ورؤيتها لي عُراةً أمام بعضنا لا يفصلنُا شيءٌ عن طحن بعضنا البعض من جديد، إنها مجردُ رغبةٍ في السيطرة لنكونَ على ما يُرام لكن ذاتي ترفضُ الرغبة من الأساس؛ وذلك لتعزيز فكرة الوحدة ورفض فكرة الانسلاخ عن السلبية قبل الإيجابية الساكنة فيها، إنّ الاستمرارَ سيزيدُ من حدّة التشويق المتبوع بالحماس والمنتهي بالدموع، لن أجازفَ أكثر من أجل النوم فأنا الآن أستسلمُ ويفوز الموهوب بالنعاس من جديد.

(2)

صباحٌ آخر مبتلٌّ بالإفرازات، هل هكذا يبدأ يوم النملة؟! تبًّا لن أخوضَ في ذلك من جديد! سأبدأ بحركةٍ مفاجئة نحو الشباك، بدايةٌ مشجِّعة للتشنُّج العضلي، الستارةُ المنهَكة تتدارَكُ بضعف غضب الشمس في ساعةٍ من الظهيرة، في حركةٍ سريعةٍ أُتممُ فتحها وأتدرّجُ نحو بداية الاندماج مع الحياة، أفْتِتحُها بالنظر للبحر العتيق وصورة الشمس المنعكسة به مثل بيضةٍ عملاقة يتموَّجُ صفارُها في أعماقه، ذاك المنظرُ أراهُ كل يوم وعلى عكس كل شيء لم يُزعزعني تكرارُه؛ لحرِّيتي في رسمه ووضع التفاصيل له دون تقبيحِ تفاصيله، إنه أبعد ما يستطيعُ بصري إدراكَه إذ بعد النظر إليه أبدأُ بالاقتراب أيْ أنني أتدرَّجُ بالرؤية التي أبدأُها منه وأنهيها بالنظر في المرآة وبين ذلك تتكتَّلُ البشرية في كل مكان متحدّةً ومبهرجةً سريعةَ الغضب، تذهبُ وتجيء، بين منتصرٍ ومهزومٍ ومحاربٍ قديم وآخر، يتناوبُون في محو اليوم بدِّقةٍ وبثقلٍ واضح في طريقة المشي وتعابير الوجه التي بالكاد تهدأ، أصواتُ الباعة

المتداخلة ببعضها تصدحُ في كل مكان مختلطةً بأصواتٍ أخرى أكثرَ صخبًا هيكلَها الإنسان لتخدمَه وتنقلَه بمثالية، آخرُ مرحلةٍ من الرؤية هي رؤيتي لذاتي بالمرآة، نظرةٌ خاطفة، كل شيء على ما هو إذًا أنا على ما يرام، ثم أفتحُ صنبور المياه بلطفٍ وأبدأ برشِّ الماء لوجهي ثم رقبتي تدرُّجًا للإبطين، أتجِّه للمطبخ متجاهلًا رغبتي بالتبوُّل على حسب شدِّتها، القليلُ من الجبن المالح في خبزٍ نديّ تمهيداً لإطفاءِ عصب الرأس بالتدخين.

اليوم من فم البارحة، تدقُّ الساعة إشارةً إلى أني أعمل، هل سأعود من جديدٍ لذاك العمل وأمارسُ التّكرار التفصيلي ذاته دون حدثٍ جديد يجرفُ حياتي له أو يُنهيها؟! سأعود على كل حال، لا يمكنني التسليم للطَّيش المعزَّز بالتمرُّد الذي سيرميني في الشارع، على الأقل رغم المعاناة آوي للجدران المعزَّزة بالقوة وهذا دافعٌ كافٍ للاستمرار، ثلاثون دقيقة على البداية وتسعُ ساعاتٍ على النهاية، سيمرُّ الوقت المتبقي من دون ملاحظة أي شيء وسيبدأ وقتٌ مدجَّجٌ بالدّقة والتنظيم، سأترك الغرفة منيرةً

وأغادر، أحمل معي علبةً كبيرةً من الماء الفاتر، ستصبح دافئةً وغير صالحة للشُّرب بعد أول ساعة؛ لذلك أدعُها تتقلَّبُ بين الأفواه حينًاً وعلى نباتٍ لا أشعر بأنه على ما يرام حينًا آخر.

لا يمكنني التأخُّر كي لا أدخلَ في نطاق الخصم وتُطبَّقَ بعضٌ من القوانين المنسية عليّ وجزاءً آخر بعضٌ من التوبيخ الذي يزداد ويتناقص حسب الحالة النفسية للمسؤول المتجمِّعة في ليلته السابقة أو في صباحه المعتاد، بالكاد أتماشى مع التوبيخ إذ تمَّ عليَّ مرةً واحدة فقط! كان توبيخًا قاسيًا ولم يتبعْهُ خصمٌ؛ لذلك تجنَّبتُ الشّائع عن كرامة رجلٍ لا يرضى بشبه مهانة تحت مسمّى العمل مع أنّ الافكار التي راودتْني في ذاك الموقف كانت كافيةً لقتله على مرأى الزملاء مثل مسكه من فمه وذاك المكانُ الأوْلى بفعلٍ هستيري كنايةً بتركيزي الشديد على مخارج الحروف وطريقة نطق الكلمات، أغرسُ كلتا يدايَ تحت شفاهه ثم أشدِّد بالقوة الموازية لقوة الكلمة وتأثيرها إلى أن يصبح فمُه بطول فكِّه المخفي وراء الخدّين، لستُ بهذا العنف ربما بداخلي عنفٌ إن تأثّر

بكل ما لاحظته بسنواتي الفائتة لكني وبكل صدقٍ لا أجد المبرِّر الكافي لإخراجه نظرًا للعواقب الوخيمة على شخصٍ مثلي يحاول صنعَ حياةٍ من لا شيء.

أقفُ على الجانب الآخر من الشارع المُؤدّي للعمل كالعادة وفي فمي سيجارةٌ تضايقني نظرًا لتخبُّطها بنسمات الهواء الحار؛ لذلك أبزُقها في نصفها تقريبًا دون استعمال يدي مع ندمي على إشعالها، ثم أسيرُ وألتفتُ لحركة السَّير النّشطة وأُجبرها على التباطؤ المتوازي مع سرعتي، رغبةُ الانتحار لديّ ليست محفوفةً بالأهمية كأهميةِ تأمين ذاتي ببعض المواد الغذائية، لكن لا بأس إن كان موتًا غير مربوطٍ بفكرة الانتحار ودون خططٍ تحتاج كفاءةً هستيرية، ولكنّي أكرِّرُ أن لا بأس بالفكرة إن كانت مفاجئةً وهذا جانبٌ منّي يأملُ ذلك، من جديدٍ لن يحدث شيء إذ ليس للسائق أيًّا كانت أفكارُه رغبةٌ بأن يلمَّ آدميتي بضربةٍ حديدية فالحذرُ يملأُ هؤلاء الاشخاص ذوي العوائل والمصالح، أي أنّ إيذائي غير المقصود حتى لو كنتُ أنا من تسبَّبَ به سيجلبُ لهم مآسٍ

قانونية ونفسية تعادل ما أشعرُ به أثناء دهسي في حال بقائي على قيد الحياة.

البابُ من جديدٍ، بابُ الموظفين أقذرُ الأماكن وأقذرُ البدايات، كلمّا دخلتُه زادتْ لوعتي للدخول من باب الزوّار المؤثَّث بالحُرَّاس والعبارات التسويقية، في الموعد تمامًا وبالزِّي الخاص أُودِّع أثرَ الاستقلالية وأنزلُ نحو حزن العمل والعمّال، الفريق متجمِّعٌ حول المسؤول، نظراتُهم الخاطفة لي وأنا مُقدِمٌ عليهم كأنها تنتظرُ انضمامي لإكمال المجموعة وإتمام حلقة المشقّة من جديد، أماكنُ العمل تتغيّر كل يومٍ تقريبًا لكن يمكنك (حسب مزاج المسؤول) اختيارُ مَن يعملُ معكَ، إنْ حصلتِ الفرصة لن أختارَ زميل البارحة رغم ارتياحي له، اليوم أشعر برغبةٍ للاستماع؛ لذا سأحاول اختيار ثرثارٍ أو متخبِّطٍ بذاته، ذلك لسهولة استفزازه وسرعة لفت انتباهه للأشياء العادية كأن أغيِّر وضعية جسدي وأحاول أن أجلسَ القرفصاء بدلًا من أن أثنيَ ظهري، حال انضمامي تلقَّتْني التحيةُ من الجميع بطرقٍ مختلفة، منهم من

حرّك حاجبيْهِ للأعلى وهذه طريقةٌ للتحية الصامتة ومنهم من نطق ورفع كفَّهُ ملوِّحًا به إليّ، أما المسؤول ولأول مرةٍ قال لي أهلًا ثم وضع يدهُ على كتفي كنايةً بالتحية الحارة وتابع:

- *"اليوم نهايةُ الأسبوع وسيكون به العملُ أكثر من باقي الأيام؛ لذلك أريدُ منكم العمل بشكلٍ سريع ومتقَن"*، ثم ابتسم وقال: *"سيعمل الفريقُ كاملًا مع بعضه باستثناء واحدٍ فقط سيعملُ وحده عند برك السّباحة نظرًا للازدحام الكبير على الشاطئ"*، وبنفس حركة التحية خاصته، وضع يدهُ على كتفي وقال: *"أنتَ من سيعملُ بمفرده"* ثم نظر إليّ كأنه ينتظرُ مني ردًا أو اعتراضًا ثم اعترضتْ نظراتُه: *"تمّ!"*

لم أعترض على العمل! مهما كان موحشًا سأُصبِّرُ نفسي بنفسي دون أن أُحوِّل دماغي إلى كرةٍ يلعبُ بها الآخرون، لكن ما الفائدةُ من ذلك إن كنتُ دائخًا في نفسي وأعرف أنّ اليومَ هو نهايةُ الأسبوع عن طريق الصدفة؟! وكيف لنفسي أن ترضى ببهرجة دماغي المنعزل عن حياة الآخرين والأعظم من ذلك عن الاستمتاع بالحياة وجمالها؟!

في حدود ذاتي هناك لغةٌ تتقلّبُ بين الناس، لغةٌ محكيّة تحمل التفاصيل والأفكار التي تدلُّ على مسار العيش، جماعاتٌ من حولي تتحاورُ وتكسو إجراءاتِ سيرِ حياتها بالأصوات واللهجات، أطفالٌ في قمّة الاستمتاع الذي يظهر على كل جزءٍ من وجوههم ومن حولهم الآباءُ في دوْرِ الحراسة وبثِّ الحذر عن طريق الوجوه، كلما تغيَّرتْ وضعيةُ الطفل نطق أحدُ الآباء بجملةٍ مفادها الحذر مع عدمِ اكتراثٍ مطلقٍ من الطفل الدّائخ في المتعة، سأُقلِّبُ وجوههم ولغاتهم في دماغي، سأدرُسُها وأتحسّر ثم أدوسُ عليها من جديد، سأصفعُ طبقية الحياة بالتذمُّر ولن يُصغيَ أحدٌ لي، أحاول جاهدًا أن أكفَّ عن المراقبة البصيرة؛ لعدم لفت الأنظار حولي لأنَّ هذا بمثابة خرقٍ لأسوار خصوصيةِ أحدهم لكنّ الاستماع شيّقٌ، وعليه يسحبُني فضولي لتفقُّدِ تفاصيل الشخص المتحدِّث وعند ملأ الفضول أكفُّ عن المنطقة التي يتواجدون بها.

إنّ من المستحيل أن تسمعَ موضوعًا مكتملًا يدورُ بينهم، إنهم يأتون بأبسط الجمل وبالكاد يفتحون أفواههم كي تخرج منها

كلماتٌ غير مُعادية وليست جيّدة في ذات الوقت، الكثيرُ منهم لا يحملُ في رأسه شيئًا إلا في حدود عمله؛ لذلك يكثُرُ ذكر العمل في أيّ موضوعٍ يُذكَر، إنهم أبسطُ من أن يواجهوا هذه الحياةَ التي نعيش وليس لديهم أيُّ قدرةٍ على مواكبتها جرّاء ذلك، أعتقدُ أنّ عقولهم تحملُ القليل من كل شيء وقلوبهم لا تعتبُ بالمعنى الصحيح للعتب إنما عتبٌ تافهٌ مُهيَّئٌ للهدم في أيّ لحظة، هل يُعقَل أنّ هذه الفئة المرفّهة من الناس تعرف مشقّة الحب؟!

إنّ الرقابة في كل مكانٍ حولي سواءٌ بشرية أو إلكترونية، تقتنصُ العثرات والأخطاء وتضعها في قائمةٍ سوداءَ خاصّةٍ لكلٍّ منّا، رغم ذلك أحاول جاهدًا عدم لفت الانتباه، لا يلزمني الشُّكر وكذلك التوبيخ، ربما أنا في قمّة اليأس البشري وأملكُ في ذاتي رغباتٍ انتحارية تزدادُ كل يوم! لا يعنيني شيءٌ في سريرتي رغم أني أهتمُّ لكل شيءٍ حولي وأتّخذُه سبيلًا لتهدئة نفسي التي تشاكسُ وحدها، في ركنٍ ما يجلس شخصين أحدهما أنثىً ترتدي على وجهها نظّارةً شمسيةً كبيرة ويمسكُ بيدها شابٌ يملئ جسدَهُ

شبه العاري شعرٌ كثيف، مستلقيان أمام بركة الماء ويضعُ كلٌ منهما يدَه بيد الآخر مع النظر لبعضهما البعض، ويتبادلان كلماتٍ بالكاد تخرج تقابلُها ابتسامة المتلقّي للكلمة، وعليه اقتربتُ منهما أكثر لأسمع؛ فكانت النتيجة كما توقعت أنهما يُغرقان بعضهما بالغزل والكلمات المعسولة التي تُتَداولُ بين أيّ إثنين مرتبطين، إن هذا المشهد يَنبتُ في داخلي ويتغير ثم يسيطر على الرغبات ويتجّه بي للبحث العميق عن تطبيقٍ له على الواقع، نعم أريد ذلك بشدّة، أريدُ أن أشارك الكلمات بصورةٍ شاعرية يعجز الكثيرُ عنها، لكنني متجذرٌ بالضعف ومتمسِّكٌ بنفسي ومكتفٍ بها "إلى حدٍّ ما"، هل العلاقة التي تنبتُ أمامي الآن ستستمر أم أنها مجرد رغبةٍ متكافئة أو حلقةٍ تدور بهم في مرحلة التجارب فقط؟ لا أعلم أبدًا رغم كل الفروقات، أأنا البائسُ أم هم البؤساء؟

لا يمكن طرحُ مسألة الوقت من رأسي كأنّ دماغي ساعةٌ تدُّق داخلي، إنني أبحث عن حيلةٍ من هذه الساعات في أيّ مخرج، لا أعرف ما الذي يدور بين ساعات العمل لهذا اليوم البطيء وأنا،

كما أني أعمل بنَفَسٍ طويلٍ نظرًا لقلّة العمل على هذه الأرض الصغيرة على عكس العمل في الشاطئ المُولَع بالقذارة كما أنَّ الحركةَ من حولي تُعيق من إتمامي لهُ، هذا أنا مركزُ المكان، الجميعُ يدورُ حولي وأنا الثّابت، على عكس الشمس لا أحد يلحظ وجودي ولا يمكن للمرء لفت الانتباه بالمرّة لكنّي أُدقِّق على الجميع تقريبًا وإنَّ أحدَهم لو رمى بنظرته نحوي أزاحَها فورًا كأنه رأى ما لا يسرُّه البتّة، نعم هذه حقيقتي التي أتقبلُّها حينًا وأرفضُها حينًا آخر! نحن 'ومَن مثلي' من غير المرئيين لا نرى إلاّ بعضنا وبعضُنا يفرُّ من نفسه أصلًا، لكن وإن ترجّلتُ الآن وأشعلتُ النيرانَ بنفسي وأنا بينهم سألفتُ انتباه الجميع وربما يترجّلُ أحدهم أيضًا ويرميني في بركة الماء، هذا سينزع السَّكينة منهم كما أنه سيبقى معلَّقًا في أدمغة بعضهم لمدةٍ طويلة خاصّةً النساءَ منهم، سأصبحُ العِبرة وسينقسم الحاضرون بينهم لفريقين أحدهما يوّدُ الحزن والثاني لا يأبه لي بل سينادي بالعقاب في حال نجوت.

الصبرُ مهيمنٌ على الضعفاء، صبرٌ مدجَّجٌ بالصمت، ثمّة علاقةٌ مبهرة بين الضعف والصبر ربما لن يكتشف فحوتَها من ترعرع بين الترف وحتى لو كان لهُ جَلَدٌ فلن يصمد كثيرًا، سأنفرد يومًا بالصبر والإيمان والضعف وغَلَبة الأقدار المسحوبة بالفقر، ربما سأكون كاملًا في وقتها وممتلئًا بالفضائل دون اصطناعٍ حتى لو كان بسيطًا، في وسط هذا الغرق الطويل وفي وحْل الفكرة جاءَ صوتٌ يحمل منطوقًا غيرَ صحيح، كان زميلًا لي يحمل العِدّة ومُقبلًا نحوي يقول: *"انت مش هتتغدا، الاستراحة طارتْ"* وتابعَ سيرَه، لم ينتظر مني ردًّا ما أو تعبيرًا لكنه أكملَ السّير من جانبي وعليه اتَّبعتُه دون أن أُناديه ووصلنا لساحةٍ داخليةٍ كبيرة تسمّى مكان استراحة العاملين، يصطف الجميعُ واحدًا تلو الآخر حاملين معهم أطباقَ معدنيةً مقسّمةً لثلاثة أقسام: في القسم الكبير يُوضَع الأرز الابيض بكمياتٍ متفاوتة لنا وفي القسم الثاني تُوضَع صلصةٌ حمراء فيها القليل من البطاطا وحبّات البازيلاء وفي القسم الثالث غالبًا يُترَكُ فارغًا وأحيانًا تُوضَع به قطعةٌ من الخبز، السُّرعة التي يُعبِّئُ بها الطاهي الأطباقَ تجعلُه غير عادلٍ في التقسيم،

أحيانًا يملأُ لك الطبق وأحيانًا يضعُ حصةً منقوصة، ولم يعترض أحدٌ على هذا أبدًا! تجري الأمورُ بسرعةٍ نأكلُ ثم ندخِّن، أغلبُ من في القاعة مدخنون كأن السيجارة اصبعٌ سادسٌ وثابت، بالتوازي مع النقص والتعب بين الناس تنتشرُ ظاهرة التدخين أي أنّ أغلب المدخنين من طبقاتٍ دون الوسطى، وكذلك يُشَاع أن التدخين يُخفِّف عنّا مشاقًّا ويفتح مشاقًّا أخرى، حَلقةٌ من المشاق تُديرُ الحياة، الجميع جالسٌ بمكانه بانتظارِ انتهاءِ فترة الاستراحة التي لا تتجاوزُ نصف ساعة، إذ يعمُّ الصّمت ويعمُّ ضجيجٌ لهذا الصمت المختلِط بالحرارة والتأفُّف، روائحُ الطعام مع روائح الأجساد المرهَقة تختلطُ بالدخان، انتظارُ شيءٍ لا يستحقُّ الانتظارَ أصلًا والمعضلة أنَّ جُلّ التفكير منصَبٌّ على انتظار العودة للعمل، ينسحب البعض كاسرًا صبرهُ متجِّهًا نحو الباب بعزمِ المحطّمين للعمل قبل انتهاء الاستراحةِ ثم يتسلسلُ الجميع مرةً واحدة، نعودُ أدراجنا غير جاهزين أبدًا للمباشرة، لكننا نعود إليه في منتصف النهار تقريبًا حيث تكون الشمس عموديةً وفي هذا الوقت تتضاءل حركةُ الزوّار لِما يسَمُّونه وقتًا للقيلولة وعليه يمكنُنا نحنُ

الجلوس في الظل، في هذا الوقت أتسلَّل نحو الزملاء الذين يُماطلون مثلي في عملهم، أقفُ وألقي التحية بجمودٍ ثم أسال بصوت عالٍ:

- *"غدًا سنعملُ مساءً أم صباحًا؟"*
- يردُّ أحدنا:*"على الأغلب سنعملُ في الليل"*، ثم يتابع بتبرُّمٍ: *"هذا نظامٌ محطَّمٌ لماذا يأبى الثبات، لا يمكن ترتيبُ النوم والنظام اليومي عند تقلُّبنا بين هذا وذاك، سأفضِّل الوردية الصباحية دومًا، بالنهاية سأعود قبل انفلاتِ الظلام للبيت وسأملك وقتًا لعمل ما يحلو لي"*،
- قاطعهُ زميلٌ آخر بانَ على وجهه الغضبُ: *"لا يمكنُنا الاعتراضُ، في حال اعترضنا سيطردوننا دون شكٍ وسيأتون بآخرين"*،
- قلتُ: *"وفي حال طردُونا بسبب احتجاجنا وأحضروا آخرين واعترضوا هم أيضًا على هذا النظام، حينها ستضطَّر الإدارةُ إلى تعديله، ومن هنا أتتْ فكرةُ التضحية من أجل الآخرين، بالتضحية ستنهضُ آلياتٌ مُريحةٌ لنا وللناس جميعًا"*، قلتُ

ذلك ثم نظرتُ للوجوه الغارقة باللامبالاة، لم أتلقَّ أيَّة ردودٍ كلامية على ما قلت! وعليه عدتُ نحو مكاني مشحونًا بهواجسٍ مكدّسةٍ داخلنا لا يمكن تفويضُها وطرحُها قبل أن يتلقَّفها الخوفُ من كل عاقبة، وعليه سننحسرُ أكثر في دواخلنا ونُكمِل.

قبل الإشراف على المغادرة تجري العادةُ التفقُّدية المبتدئة بي والمنتهية بالآخرين بالإضافة إلى جدول الدوام في اليوم التالي، لقَّننا المسؤول الرموزَ التي تدلُّ على موعد العمل غدًا، رموزٌ ثلاثة: أ، ب، ج، الحرف الأول يدلُّ على الصباحي والثاني يدلُّ على المسائي أما الثالث فيدلُّ على عملٍ ما بعد المسائي أي من مساءِ يومٍ ما حتى الصباح وهذا النظامُ يقتصر على البعض ولم أجرِّبه حتى الآن ولديّ مخاوفٌ منه مع رغبةٍ بالتجربة، بعد ذلك أخرجُ من ذات الباب للحياة، من ذات الشارع المعتاد والمكتظِّ بالسيارات المسرعة، وفي دقةٍ بين البطيء والسرعة أقطعُهُ مع القليلِ من الحذر وتجاهلٍ للشتائم والتلويحات الغاضبة، أصلُ

للجانب الثاني ثم أتابع السَّير مرورًا ببائع العصير الذي يستوقفُني دومًا حتى لو لم أشترِ، يتمُّ تخييري من البائع بين ثلاثة ألوانٍ: الأخضر والأحمر والأصفر، أختارُ منها الأخضر دون اقتناعٍ بمصداقيةِ الفروق بينها، كنتُ أتخيَّلُ في كل مرّةٍ أختار بها لونًا أن يسألني أحدُهم لماذا اخترتَ هذا اللون ثم أجيبه عن قصة هذا اللون ورموزه ودلالته ومدى درجاته حسب كتابٍ قرأتُه عن الألوان، كان الكتاب يعجُّ بالألوان التي لم أسمع عنها طوال حياتي وكان يحتوي على معلوماتٍ غريبةٍ عن كلِّ لون، لكنَّ تحليل الألوان غير مهمٍ أبدًا في ظلِّ العطش أو ربما اهتمامُهم بها يقتصر على بعض الأمور مثل تعريف اللون الأسود بالحزن والأبيض بالفرح وهذا المتداولُ بين الناس ينافي كتاب الألوان تمامًا.

على باب المبنى حيث أسكن، هناك ما يشبه صوتَ انهمارٍ للماء القوي، اقتربتُ أكثرَ فكان الصوت يَصدُرُ من المصعد الذي تمَّ إصلاحُه، أقفُ أمام الباب في انتظار وصوله كما أني أودُّ معرفةَ العلاقة بين الماء والمصعد الذي يتحرَّك بذات اللحظة مع صوتِ

خرير المياه، في هذه اللحظة أتتْ السيِّدة التي تسكنُ فوقي، كانت ترتدي قفازاتٍ سوداءَ نايلون في يديْها وتضعُ حقيبةً صغيرةً تحت إبطها، هزّتْ رأسَها دلالةً على التحية فقلتُ: "*أهلًا*"، وقبل وصول المصعد لنا قلتُ بنبرة تساؤلٍ: "*أهذا صوتُ ماءٍ؟*"، نظرتْ إليَّ كما كانتْ تنظرُ عندما كنتُ أسألها عن انقطاع الماء ثم أجابت: "*لا أعرف حقًا*"، ثم صعد كلانا به مستمعانِ للماء المنهمر كلما صعدَ المصعدُ للأعلى، لم نتكلّم في داخله ولم تكن لي رغبةٌ بالحديث معها أبدًا بل بدوتُ أمامها متبرِّمًا وأودُّ الوصول فقط، هناك أفعالٌ يقوم بها المرء بدافعيةٍ تفاجئُه من ذاته، هي تلك اللحظة التي ينصبُّ بها المرءُ على القوّة إذ يشعرُ أنه في وقتٍ ومكانٍ مناسبيْن لإخراج طاقاته، ذلك حدث فعلًا في اللحظات التي قضيناها في المصعد، وعلى حين غرّةٍ نظرَتْ فوجَّهتُ لها نظرةً حادّةً ولم أتوقّف عن التحديق بها إلّا عندما تمتمتْ بكلماتٍ لم أسمعها جيدًا، كانت ملامحُها حادّةً ووجهُا يقاومُ التشقُّقاتِ بالمساحيق وأنفُها كبيرٌ وممتدٌّ لشفتيها، كان واضحًا على عينيها الضعف إذ يتجمَّعُ الضباب الأسود حولهما وتتداركُه هي بالمسحوق، كان

القُرب منها يبيّنُ لي تلك التفاصيلَ الصغيرة، خرجتُ مسرعًا بعد ذلك إذ إنّ الباب بالكادِ فُتِح ثم أُغلِق مرّةً أخرى، نظرتُ إليها بالتزامن مع انغلاق الباب وكانتْ تنظرُ إليَّ باستغرابٍ وذلك دفعَ طاقتي مرّةً أخرى للنهوض بشكلٍ ملطّخٍ بالمشاعر، ودون وعيٍ تامٍّ صعدتُ جريًا للطابق العلوي الذي تسكنُ به إذ كانتْ فكرتي أن أصلَ إليها قبل أن يُفتح المصعد، لم يكنْ لديّ شيءٌ لأقولَه كنت أُوكّلُ اللحظةَ ذاتها بالبداية، حالما وصلتْ وجدتُها تفتحُ بابَ شقّتها، كأنني أرعبتُها بفعلتي هذه! بدأ الخوفُ يسيطر على الأجواء والتعابير كما أنها أعادتْ تمتماتٍ غيرَ واضحةٍ تتدرَّجُ بالعلوِّ كلما اقتربتُ، قلتُ لها عندما شعرتُ أنّ الذي يحدثُ سيُودِي بي نحو الشارع:

- "*أعتذر عن ذلك لم أقصد إخافتكِ*" ثم سكتُّ, لم تُجبني بشيءٍ وضلَّتْ ثابتةً وعلى نفس التعابير! راودتني فكرةٌ بشكلٍ مفاجئ، وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ ورقةً نقدية ثم قلتُ:"*انظري لقد وجدتُ هذه عند درجاتِ بيتك لمحتُها قبل دخولي للمنزل هل هي لكِ؟*"، صمتٌ وتبادلٌ للنظرات،

كانت تنظر إليّ حينًا وتنظر للورقة حينًا آخر، كنتُ أتمنى في داخلي ألّا تأخذَها لكنها لفتتْ انتباهَها في تلك اللحظة.

- بعد تبادل النظرات قالت: "*نعم إنها لي، أضعتُها منذ سنواتٍ*" وأخذَتْها ودخلتْ.

متسمِّرًا مكاني على باب بيتها إذ إنها عاقبتني وجنبتْنا عواقبَ أكثر تشاؤمية، اكتشفتُ أنّ الورقة لي وأني أخرجتُها تداركًا للإحراج، كانتْ قد رسمتْ ابتسامةً على شفتيها بعدما أخذتِ الورقة النقدية، لم أستطع وصف تلك الابتسامة ودلالاتها، لم تكن ابتسامةَ نصرٍ بل كسرةً وضيقًا كأنها بهذا الموقف اختتمتْ لغة الجسد المتعب، لم يسرَّني ما حدث، وبّختُ نفسي كثيرًا وتأسّفتُ لها أيضًا، لم يكن ذلك المبلغ مجرد فائضٍ تمَّ رصدُه لهذه التجربة إنما كان رقعةً للالتزام لا بدَّ أن أغطّيه.

كان دماغي في غاية التعب لم يكن قادرًا على أن يقودني بعد هذا الموقف، وصلتُ ساحبًا أقدامي رغمًا عنها للباب، دخلتُ

وأقفلتُه خلفي ورحتُ أسير كالسلحفاة الهرِمة نحو مكانٍ ما يمكن أن أستلقيَ عليه بعجزٍ شديد، اليوم وبهذه الضربة التي تلقّيتُها من موقفٍ لا يتعدّى عشر دقائق أُتلفَ منّي سنواتٍ طويلة من التماسك حيث تجنّبتُ بها أغلب المواقف التي من الممكن أن تقعَ بها النفسُ البشرية بين الأبواب المؤصدة من دون مخرجٍ سوى الإحباط، إنني عدتُ إلى البداية حيث العقل أسيرٌ للمشاعر من جديد، لم تكن هذه الخطة مدروسة ولم تكن في النية من الأساس لكنها حدثتْ كي تذكِّرني بهشاشتي التي تعدَّت اليوم مرحلة التكتُّم وخرجت حادّةً نحو الحياةِ التي لا يمكنُ أن تتداركَ اللحظات أو تعيدَها قبل أن تتجَّه مسرعةً إلى أوهامٍ وأحاسيسَ متخبِّطةٍ وخائفة، سيجرفُني اليقينُ من جديدٍ نحوَ بدايةٍ ما أشكُّ أنها مقلقةٌ، وكما تسري طبيعةُ العلاقات البشرية ستكون مأساويةً وهذا لا يعني عدم قدرتي على التدارك وقفلِ أيِّ بابٍ مشحونٍ بفوضى المشاعر لكنني بالعودة لإنسانيتي سأجد بداخلي من يريدُ ذلك ويطلبه بشكلٍ دؤوب؛ وعليه ليس بيدي سوى التسليمُ لجريان الأمور والاحتياط لعدم ثباتها ومباغتتها لي

في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ ومع أيِّ شخصٍ يؤيِّدُ مواجهة مشاعره، لا بدَّ من المواجهة ولا بدَّ أن أكتفي من نزف السنوات بلا معنى، لكن ما هو المعنى؟ ومن أين أُعزِّز يقيني بمعرفته؟ ما الفارق بين المعنى وغيره إذا كنتُ دون تجاربٍ قويةٍ معه؟ هل البؤس المهيمنُ على يقيني هو المعنى الخاص بي أم أنَّ البحث هو ما سيسحبني للمعنى الحقيقي والمرغوب؟ لكني لا أتوقّعُ أن تكون مواجهتي سهلةً وبسيطة؛ ذلك لأن ما يغمرُني الآن من تراكمٍ للخيبات ليس من السهل أن أنفضَهُ وأنهضَ بعدهُ نحو عاديّة الحياة وجوهرها.

(3)

كان اليوم السابق بليلته أشبه بدمج الحيوات داخلي وجلوسها على طاولة الاجتماعات لمدةٍ طويلةٍ أنهاها النومُ المباغت، كما أنني أصبحت ضاربًا بعرض الحائط كلَّ ما زارني فيها، سأنسى ما يتعلَّقُ بالوهم المدجَّج وأعايش هذا اليوم مثل الذي سبقه، بتآلفٍ تام.

بدأ اليوم بشكلٍ عاديٍّ حيث استيقظتُ باكرًا بذات الطلّة، كان التعب واضحًا على وجهي وتحديدًا على عينيَّ، لم أنمْ جيدًا في الليلة الماضية ولم أتناول شيئًا من عصر اليوم الماضي، لا أشعرُ بذاتي وليست لي رغبةٌ بالحياة، لا بدَّ من تضميد نفسي قبل أن أتخذَّ خطوةً عنيفة، في العادة أفضِّلُ التدخين على كل شيءٍ عند استيقاظي من النوم لكنَّ اليوم مختلفٌ حيث أنّ التدخين على هذه الهيئة متأرجِّحٌ بين الاختناق والمرارة؛ لذلك سأترجَّلُ لصنع الطعام دون خياراتٍ أو مفضَّلات، سآكلُ أي شيءٍ أمامي

ولن أنتبه للطعم أو للجودة، سآكل وحسب! كلما تحرَّكتُ من مكاني زادَ شعوري بصعوبة التوازن، وعندما نهضتُ غشِيتْ رؤيتي وتحوَّلتْ لبضعِ ثوانٍ إلى اللون الأبيض التامّ ثم عادتْ، لم أهرع من ذلك؛ لمعرفتي أنّ الأمر لحظيٌّ، كانت خيارات الطعام ضيِّقةً ومحدودة، تناولتُ بشكلٍ سريع وجبةً غير مناسبةٍ للصباح، لم تكن الأجواءُ كالمعتاد! هدوءٌ بلا رياحٍ أو نسيم، ما من غيومٍ أسوأ من التي نرى الشمسَ من خلالها حيث كانت تغطّي قرص الشمس بشكلٍ زائف كما أنها لم تمنع من حرارتها شيئًا إنما غيَّرت الألوان المعتادة للأصفر الحاد، قمتُ بارتداء الملابس وتوجَّهتُ للباب، على ما يبدو أني سأتأخّر اليومَ لأولِ مرةٍ منذ بدء العمل، خرجت وقفلتُه مسرعًا وكنت أسترق النظرات من حولي وأخشى أن ألتقي بالسيدة بعد موقفِ أمس، توجّهت للمصعد وكانت هناك إشارةٌ تمَّ تركيبُها حديثًا أنّ المصعد في حالة صيانةٍ جديدة كأنَّ عملَهُ البارحة كان فقط ليحصلَ الموقف، نزلتُ مسرعًا على الدرج وكان المفتاح في جيب قميصي يتراقص ويوشك على الخروج، وضعت يدي لتثبيته ويدي الأخرى تتشبَّثُ وتنسابُ

بالحماية بالتوازي مع حركةِ جسدي، قبل أن أصل للمخرج المؤدِّي للشارع استوقفني أحدٌ ما كنتُ قد نظرتُ لوجهه من دون ملاحظة، قال لي أنّ اليوم أتممُ الشهر الثاني كما هو مدوّنٌ عنده وأن عليّ أن أدفع الايجار، قالها وكأنهُ يباهى بتوبيخه، لم أدرك إن كان هو تحديدًا صاحبُ العمارة أم المسؤول عنها فنظرت له بتساؤلٍ واضح:

- *"أأنتَ جديدٌ هنا؟"*، كان سؤالي له أشبه بحفنةِ ترابٍ تناثرتْ في وجهه وراحَ يرمشُ بشكلٍ سريعٍ وغريب.
- قال:*"أنا المالك!"*، لم أعرف ماذا عليَّ أن أجيبَه، كنتُ أحسب لذلك منذ مدّة وأنتظر رؤيتَهُ لإسكاته بمبلغٍ ما لكنه طار مع أحداث اليوم الماضي، قلت له: "*نعم إنني أتذكّر ذلك، وسأدفع لكَ كل شيءٍ غدًا*"، قلت ذلك دون وعيٍّ أنّ الغد سيكون مثل اليوم وأنّي لن أدفع له شيئًا، كانت حياتي ناهضةً وهابطة في آنٍ واحد على الصدق وفي مثل هذه الظروف كذبتُ في سبيل الهروب من التوتُّر المتبادل بيننا.

- نظر نحو الفراغ ووضع يديه على جنبَيْه لمدةٍ قصيرة ثم أعاد النظر إليّ وقال: "*سيكون الغدُ موعدنا إذًا*"، أومأتُ برأسي كنايةً بالقبول ثم غادرت مسرعًا للشارع.

خطواتٌ سريعة تتجّه نحو هدفٍ محدّدٍ لا يمكن تغييره أو الحياد عنه، كلُّ ما يحيطُ بي محضُ غباشٍ ذو تأثيرٍ غبي، كان وصولي يتطلّب الركض، لم أعتدْ ذلك حيث أنّ الركض في هذه الأماكن بمثابةِ عرضٍ يحتشدُ به الجماهير من كل مكان، المشيُ السريع ثم الهرولة فالركض، كانت الأنظار تتجّه إليَ وكانتْ تحملُ في طيّاتها استهجانًا واستغرابًا فمن الغريب أن يركض أغبرٌ تحت سطوع الشمس، نظرةُ الناس تتوجّه لي أولًا ثم تتجّه خلفي لتتفقّدَ إن كان هناك من يجري خلفي، شارفتُ على الوصول وكانت أنفاسي منغمسةً بأصواتٍ تصدرُ من صدري الممتلئ بمخلّفات التدخين، نظرَ إليّ من يعملُ في مجال الأمن نظرةً مليئة بالعتب، ألقيتُ التحية ثم دخلت، كان تأخُّري عن العمل لا يتجاوز نصف ساعة، توجّهت لغرفة الملابس وشرَعتُ بتبديل ملابسي، وقبل

ذلك بلحظاتٍ نادى عليّ أحدُهم بصوتٍ قويٍّ وقال: "*قبل أن تبدِّل ملابسك يريدُ المدير مقابلتك*"، أيقنت حينها أني بمأزقٍ وأنّ طلب المدير لمقابلتي يحمل احتمالين: الأول هو توبيخي بشكلٍ محرج، أما الاحتمالُ الثاني فكان الطرد! ولإحساسي بذلك توجّهت نحو مكتبه، كان يجلس متكتفًا كأنه ينتظر حدثًا كهذا ثم قال:

- "*الأخطاءُ هنا غير مسموحة، وتمَّ رصدُ عدّةِ أخطاءٍ قمتَ بها: الأول تركُكَ العمل في اليوم الماضي وذهابُك نحو الشاطئ حيث يعملُ زملاؤك، أما الثاني فسأعتبره أشدّ قبحًا من الأول، التأخيرُ لا يمكن أن أغفرَهُ، إنّ حسَّ المسؤولية مهمٌّ جدًا لدى العاملين هنا ومن لم يملكه أو من حادَ عنه ستكون عواقبُهُ وخيمةً، لا أعرف كيف أجازيك الجزاءَ الرَّادع، وبذات الوقت لا أريد أن أحتكمَ للقوانين الرّادعة بل إنني أريدُ أن أعاقبك بطريقتي الخاصة، لكن قبل ذلك هل لديك تبريرٌ على هذين الفعلين؟*"
- أخذتُ وقتًا حتى أجبتُه فقلت: "*لا أملك تبريرًا، تلك حياتي تتخلّلُها ظروفٌ خارجة عن إرادتي ومتاعبٌ كثيرة*"، كنت

سأقول له أنّ صاحب السكن أخذ وقتًا في توبيخي وهذا سببُ تأخُّري لكنني أراهُ لا يأبه لشيءٍ أقوله، هو لا يهمُّه فعلتي إنما يداوي بي ذاته واختناقه من المكان والزمان، نعم إنه يخشى التّمادي على القوانين لكنه أكثرُ خشيةً من التّمادي على ذاته التي تعجُّ بالنقص، كان جوابي بالنسبة له بمثابة تحدٍّ له: *"نعم! لا أملكُ تبريرًا ولم أُدرك وخامةَ أفعالي لهذه اللحظة التي أقفُ أمامك بها، إنك تُهيْمن على المكان وبذات الوقت تتيحُ لي الفرصة كي أتكلّم وأبرِّر وأنتَ تعلم في يقينك أنّ لا شيئًا سوف يَعنيك سوى ما تحملُه بصدرك، لم يكن الخطأ محض أهواءٍ أودُّ فعلَها لكنها ظروفٌ وحاجاتٌ أيضًا، لا شيءَ يمكنُه أن يحيدها عنّي، إنّ سلطتكَ المحدودة على هذا المبنى لا تعني أنك كمسؤول تمتلك الحقّ في أن تأخذ مني حقّك كاملًا وأنا لم أتقاعس يومًا عن المهام الموكَلة إليّ والتي زيّنتُها دومًا بالصمت المطلق، مكانُك اليوم لا يمكنُ أن يُتيح لك أي فرصةٍ بأن تصنعَ إهانةً لي بشكلٍّ ضمنيٍّ كهذه"*، ثم

أعطيتُه ظهري دون الالتفات، لم أكن أعرفُ إلى أين أنا متجِّهٌ، كنت أودُّ الهروبَ من ردّةِ فعله بعد الذي قلتُه.

- قبل غيابي عن ناظره نادى بصوتٍ أشبه بالصُّراخ وقال: "*لا أريدُ أن أراك هنا! طالما كان صمتُك يستفزُّني واليوم علِمتُ ما تخفيه وراء هذا الصمت، إنك تخفي الأحقاد والخبث خلفه وهذا ما تأكّدتُ منه، وستتمُّ إجراءاتُ تسريحك من هذه اللحظة ولن أتهاونَ بها*"، ثم جلس مكانه بانتظار ردِّي على كلماته.

استأنفتُ السَّير ولم أقل شيئًا! كانت حالتي النفسية في أقصى ولعها وفي ذات الوقت كان هناك هاجسٌ داخليٌّ يدفعني للّامبالاة وعدم الالتفات للخلف، تذكرتُ أنّ الزي الرسمي تمَّ خصمُه من أول مرتَّبٍ لي؛ ولذا توجّهت مسرعًا نحوه وتناولته ثم خرجت ولم ألتفت لشيءٍ خلفي، إنّ حجم المشكلة هذه وخيمٌ لا يمكن تخطّيه بسهولةٍ، إنني اليومَ دون عملٍ وغدًا دون مأوى ودون سيطرةٍ على مشاعري، بطبيعة الحال لن أُدرك حجم هذه

المسألةِ الآن إنما أحتاجُ الوقت الذي تنفخُه الأحداثُ كي أعي أنني في مشكلةٍ لا يمكن تدارُكها.

كانت أقدامي تسير ببطءٍ شديدٍ ورأسي بين أكتافي متجِّهٌ نحو الأرض، كان ظلُّ الآخرين هو ما يرشدني ويمنعني من الاصطدام بهم، إنّ العودة للمنزل بهذا الحال أشبهُ بتضميدِ عمقِ جرحٍ ما بالماء والملح، لا أعرف أين سأذهب لكنني للحظةٍ شعرتُ أنَّ عليَّ أن أجلس في أيِّ مكان، اتخَّذتُ رصيفًا ثم جلست وبجانبي الزِّي، لم تكن عدم ملاحظة وجودي بحدِّ ذاتها مشكلة؛ لأنني اعتدْتُ على ذلك ولكنَّ عدمَ ملاحظتي لذاتي هي أمُّ الأفكار المرعبة، أن تصبحَ نكرةً لذاتك أيضًا يعني ذلك تعزيزَ فكرةِ المجتمع من حولك وتحويلِها إلى حقيقةٍ ينبغي الإيمانُ بها، هل أنا نكرةٌ فعلًا؟ وإن كنتُ، كيف لي إصلاحُ ذلك؟ ومن أين لي الثباتُ الذي سيمنحني شعورَ الرِّضا الداخلي؟ الشمسُ تزداد حرارتها عند ثباتي بمكانٍ واحد، لم أكن أستطيعُ رفْعَ رأسي للأعلى من فرط حرارتها! سحبت الزّي وتابعت السّير نحو مكانٍ لم تصل إليه

الشمسُ بعد، كان هناك كرسيٌّ لونه أخضرٌ مخصصٌّص للمشاة وكان يجلسُ عليه رجلٌ كبيرٌ في السِّن ذو لحيةٍ طويلةٍ غير مرتَّبة، جلستُ بجانبه حيث أرى ما حولي بكلِّ وضوحٍ، كانت الضجَّةُ المنبعثة تساعدني على مواصلة التفكير، كانت تنبعث من الرجل رائحةٌ غريبة لم تكن سيئةً للغاية وحتى وإن كانتْ لا يمكن لشيءٍ أن يُزحزِحني من هذا المكان في الوقت الحاضر، يجبُ عليَّ تدارُكُ هذا الفشل الجديد وتقبُّلَه كي أخرج منه بسلامٍ ثم أعودَ إليه بسلامٍ أيضًا، كانت تدقُّ فكرة الانتحار فيَّ مثل جرسٍ مزعج ولم أدرك من الذي يتشبّثُ بالآخر أنا أم الحياة! إنني لم أرَ طرقًا متاحة أو فرصًا لأقتنصها، كانتْ حياتي أشبه بمن يقومُ بطحنِ الدّقيقِ المطحون أصلًا، كان العجوزُ الراقدُ بجانبي يحاول جاهدًا إشعال سيجارة بعودِ ثقابٍ ابْتُلَّ من عرق يديْه، ترجَّلْتُ وأشعلتُ له الولّاعة وثبَّتها أنفُه بعد لحظةِ مسكِ يدي التي تُسمكُ الشُّعلة وأنزلها نحو فمه ثم تأكَّد بعينٍ واحدة من أنّ السيجارة تحتطب وبعدها ترك يدي حرّة، كانت طريقتُه في التدخين تدلُّ على خبرته الطويلة به، لم ينبسْ ببنتِ شفة ولم يمنعني ذلك من أن أطلب منه سيجارة،

راح يبحثُ في جيب سترته الشتوية طويلًا، كانت السُترةُ باللون النيلي وممتلئةً بالغرز البيضاء، أخرجَ لي وبعد طول البحث نصف سيجارة فقدتْ لونها الأبيض وزادتْ اصفرارًا، أخذتُها فور خروجها ورُحتُ أُدخنُها بشراهة، كان الزيُّ الذي أحملُه بمثابة عارٍ أودُّ الخلاص منه، قلت للرجل بصوتٍ خافتٍ: "*هل يلزمُك هذا؟*"، نظر إليَّ وهزَّ رأسَه يمينًا ويسارًا كنايةً بعدمِ سماعي، أعدْتُ جملتي بصوتٍ أعلى يقترب من الصُّراخ: "*هل يلزمُك هذا؟*"، نظر إليه بإمعانٍ ثم أعاد النظر إليَ وقال: "*نعم يلزمني*" من دون أن يتفحصَه، شعرتُ حينها أنني فقدتُ آخر شيءٍ ذو أهميةٍ في حياتي إذ تدحرجتُ نحو القاع من دون إشارةٍ رغم حذري الشّديد لها، قطَعتْ طريقَ جلدي لذاتي كلماتٌ قالها الرجل الجالس بجانبي لفتاتيْن مرَّتا من أمامنا، كانت تلك الكلماتُ مصحوبةً بفمٍ مفتوحٍ على هيئةِ ضحكةٍ مرتخيةٍ وعينين ناعستين، كان كلامُه حسبما فهمتُ مُعاكسَةً غزليةً من الطِّراز القديم بحيث أنّ الفتاتين لم تفهمَا ما قاله! ضلَّتْ عيناه تتبَّعُ أثرهُما حتى تلاشى جسدُهما عن

نظره، نظر بعدها إليّ ونفثَ نفسًا من الدخانِ في وجهي ثم تناول الزِّي وانصرف، أتاح لي رحيلُه أن آخذ المكان كلّه.

كنتُ على وشك التمدُّدِ في المكان لولا أنّ أحدهم أتى مسرعًا كأنه كان ينتظر ذهاب أحدنا ليجلس، كان شابًا في بداية العشرين يرتدي زيًّا عسكريًا ثقيلًا وحذاءً طويلًا يصلُ لركبتيْه، كان وجهُه طافحًا بالحبوب وإن أمعنتَ فيه أكثرَ ستجدُ تشقُّقاتٍ وجروحًا في ذقنه من أثر الحلاقة اليومية، كان ينظر للأرض ويقلّبُ كفَّيْه حينًا ويُشبِّك أصابعه ببعضها حينًا آخر، بدتْ عليه علاماتُ التوتُّر الواضحة، كان الصمت أساس الجلسة فلم أتكلّم معه رغم أنّ حركاته لم تكن مريحةً لكنّهُ بحركةٍ مباغتةٍ هرس نملةً كانت تسير بجانب حذائه الكبير وراحتْ قدمُه ترفرفُ فوق جثمانها حتى هرسها وثبّتَ قدمُه عليها، كنتُ مُمْعِنَ النظر بحركاته كافّةً إذ إنّ جسده لم يهدأ طوال الجلسة فكلما سكتَ عضوٌ تحرَّك الآخرُ بشكلٍ ملفت، تمسَّكتُ بالصمت بعدما كِدْتُ أن أوجِّه لهُ كلماتٍ

من شأنها أن تفتحَ حوارًا مع أيِّ إنسانٍ مضطرب، بعد فترةٍ وجيزة نظر إليّ وكان لحاجبيْه عقدةٌ ملفتَة ثم قال:

- *"كم يتطلَّبُ السّفر إلى العاصمة؟"*
- *"إنني لا أعرف تمامًا كم التكلفة، أنا هنا مِن ثلاثِ سنوات والتكاليفُ تتغيّرُ كلّ يومٍ"*، عاد إلى وضعيته السابقة؛ ممّا دفعني للتفوُّه بكلماتٍ من شأنها إعادةُ فتح الموضوع: *"هل تعيشُ هنا؟"*
- *"لا، أنا أتدربُّ هنا ولم آتِ لهذا المكان من قبل"*، صمت قليلًا ثم تابع: *"أودُّ العودة إلى الديار من دون رجعةٍ، هذا المكانُ هو الجحيم عينُه"*
- قلت له بحذرٍ: *"ما الذي تتدربُّ عليه هنا؟"*، فقال أنه جديدٌ في السِّلك العسكري وعليه أن يقضي ما يقارب السنة هنا، كان يسعى للهروب من واقعه هذا بعد تسليمِ نفسه للحياة كمن يريدُ بناء حياته بشكلٍ جديدٍ بعد استيقاظه من غيبوبةٍ دامتْ طويلاً.

- نظر حوله نظرةً دائريةً ثم تابع: "*لقد كان السمر والرفقة أهمَّ ما في حياتي وما كان يهمُّني شيءٌ في هذه الحياة، كانت حياتُنا رائعةً وممتلئةً بالبهجة ولم يكن لديَّ الوقتُ للتفكير بالمستقبل، أنا هنا حبيسُ جدرانٍ تَحسَبُها صحراءَ قاحلةً، كلنا غرباءُ داخلها يغزونا الرّعبُ وتحكمنا الأوامرُ والنواهي، كما أنه من غير المسموح لي أن أتواصل مع العالم الخارجي أثناء الفترة هذه، غابتْ عني البهجةُ وشعوري بالقهر يزدادُ مع كلِّ يومٍ ينقضي، جلوسي هنا ليس إلا عِنادًا مع الأقدار، إنني أعزمُ على الهرب دون الالتفات للخلف*"، كانتْ ملامحي كلُّها تشير إلى موافقتي له وذلك دبَّ فيه شعورَ الراحة فتابع: "*إني أشتاقُ للأكل الذي كنا نعدُّه في المنزل، حتى أنَ شعوري بالجوع في السّابق يختلف عمّا هو عليه الآن، كلُّ شيءٍ اختلف تمامًا، أناسٌ جُدد وواقعٌ آخر إما أن تتعايش معه أو أن تواجهَ عقبات الانسحاب*"
- قاطعتُه بهدوءٍ:"*ما هي عقبات الانسحاب؟*"

- راحَ يتبسمُ بتبرُّمٍ وتابع:"*الخسارةُ أساسٌ أول للانسحاب، إن مستقبلي تمَّ بناؤُه على هذه الوظيفة لكن ليس من قِبلي، إنه لأمرٌ شديدُ القبحِ أن تخيب التوقعاتُ والآمال التي بُنيتْ على ظهرك، هذا هو الضميرُ الذي يتحكَّمُ بي الآن ويحدُّ بيني وبين الفرار للحياة، هذا هوَ الضمير!*"، فرَّ فجأةً ورحل دون أن أعرف أين هي وجهتُه القادمة، وضعني بين احتمالين سيحدِّدان حياته إمّا العودة أو البقاء، كان قرارهُ النهائيُّ سارحًا في ضباب أعماقه يُؤجِّلُ خروجه لكي يشعرَ المعنى بالتورّط بشكلٍ أوسع، إنها عقباتٌ مسطَّرةٌ لكل منّا نتَتوَّجُ بها رغمًا عنا، يضلُّ نزفُها مستمرًا لحين تضميده بعقبةٍ أخرى أشدَّ فتكًا، تهيمن قصتي على ما أسمع من العابرين وتعود بعد المقارنات باهجةً في دماغي، سأنسى بالتأكيد كلمات الشاب المشحونة بالحسرة التي زال تأثيرها بمجرد ذهابه.

إنّ القصة التي تسكن في كلِّ نفسٍ بشرية مثلها مثل صاحبها تحاول جاهدةً أن تظهرَ وتتألّق وتهيمنَ على باقي القصص

وكذلك أصحابها، حيث أنك وما تملكُ من فظاعةٍ في حكايتك لن تكون بنظر الذي أمامك بحجم معاناته؛ لذلك لا أروي أيَّ شيءٍ من مشاكلي لأحدٍ حتى وإن كنتُ في أمسِّ الحاجة لذلك وإن صدفَ وروى لي أحدُهم معاناته مهما كان شكلها آخُذُ دورَ المستمع من دونِ أيّ اقتراحٍ أو حلٍّ، إنني أتلذّذ بفحوة المشكلة وأُصبح أكثر قوّةً حين يقعُ الراوي في ورطة الخيارات، كان بإمكاني مساعدة ذاك الشاب إذ إنني أملكُ جُلّ الكلمات التي تؤثِّر بمن في سنِّه وأعلم جيَدًا كيف أوظِّفُها في سبيل إقناعه، لم أكن ولو للحظة مرشدًا لبناءِ حياة أحدهم أو تضميدِ جروحه وأنا منذ البداية ذو حياةٍ مهدّدةٍ بالانقراض.

أجزْتُ لنفسي أن أسمع وسمحتُ لها بالنسيان، فكرت بالتمدُّد هنا قبل أن يُقبِل أحدٌ ويهيمن حضورَه من جديد فكانت فكرة الفرار أقوى اقتراحٍ أقنعني، انتفضتُ ببطءٍ ثم تفقَّدت ملابسي إثرَ الجلوس الطويل وحاولت أن أنظر لمؤخِّرة جسدي ورُحتُ أنفضُ آثارًا مرسومةً ذات لونٍ أبيض ثم تابعت مسيري،

لم تكن أيامي هذه بسيطةً رغم مروري بما هو أقبح منها، لكنّ تركَها هكذا من دون حلٍّ أو حتى محاولةٍ لإيجاده سيعودُ عليَّ بمأساةٍ أكبر وأشدَّ فتكًا تهوي بي نحو الجوع الدّائم أو نحو القضاء.

توجّهت للبيت بعد يأسٍ واضحٍ على حرارة وجهي، كانت فكرة الدخول للمنزل تحمل العديد من الخيارات كأن أجد الشخص الذي كلّمني في الصباح ليعاودَ تأنيبي أو أنّ فكرة التأنيب لم تعدْ تُرضي خاطرَه فعمل على تطويرها واستدعى إحدى القوى الخارجية للتدخُّل أو أن أجد أثاث شقّتي في ركنٍ ما خارج السكن، أفضِّلُ هذا الخيار الذي سيعطيني بطبيعة الحال حرِّيةَ الذهاب دون مساءلةٍ فمجرَّدُ رمي أثاثي في الخارج يعني أنّ المالك لا يريدُ التصعيد بل اكتفى بطردي وهذا الأمر بدون عواقبَ وخيمةٍ، دخلت من الباب الرئيسي بتأهُّبٍ وحذرٍ ورحت أتلفّتُ لكافّة الجوانب كأني أدخلُه لأولِّ مرة، كان اليوم يوشك على الدخول في وقت العصر أيّ في وقت القيلولة المعتاد بين الناس، لم يكن هناك أحدٌ وعليه صعدتُ بسرعةٍ وخفّةٍ نحو سكني،

فتحت الباب ودخلت، لم تكن فكرةُ النوم سديدةً في تلك الظروف مع أنني ما زلت أبدِّلُ من خلاله الحيوات وأقلِّبُها لكن الخوفَ كان السيِّدَ في ذلك الوقت ممّا منعَ النوم أن يجتاحني، جلستُ على طرف السرير ولم أتمدّد لكي لا يسرقني النومُ فجأةً، وفكرت بطرقٍ عديدةٍ لإعادة حياتي إلى مسارها الأول، فكرت مثلًا أن أجدَ عملًا آخر وأن أبدأ بتسديد ديوني أو أن أُحضِّرَ خطابًا يعجُّ بالمشاعر وألقيهِ أمام المالك أو أن أجمعَ الأعذار وأبتكر منها عذرًا عظيمًا وأقدِّمَه كقربانٍ للشخص الذي طردني في الصباح على أمل أن يُعيدني إلى العمل كما أنني لم أتفادَ فكرة تعليق الحبل الذي يربط أنبوب الماء بالجدار في مكانٍ مرتفع ثم أُدلِّيه لأشنقَ نفسي، في هذه اللحظات كانت فكرةُ الانتحار بمثابة خاتمةٍ لكلّ الأفكار التي اقترحتُها على نفسي، كانتْ الأسهل بينها! كانتْ مقارناتي بالأمر السّهل تتوجّهُ بي جميعُها إليه؛ وذلكَ لأني كلما فكّرتُ بأحد هذه الخيارات ودقّقتُ به، تخيّلتُ تفاصيله وتخيّلتُ ردود الفعل التي تحمل احتمالية الرفض، إنّ المجازفة بما تبقّى لي من كرامةٍ بحدِّ ذاته انتحار علاوةً على ذلك سأظلُّ في حالة القبول في انكسارٍ

داخليٍّ مميت، إنّ الخيار الأنبل هو الفِرار من هذه الخسارات جميعًا، كان سيناريو شنق نفسي الأكثرَ سهولةً إذ إنّ تخيُّلاتي تقول بأني سأبقى معلّقًا هنا إذا ما تمَّ اقتحامُ الموقف إلى أن تنبثقَ رائحةُ جسدي وتُلفِتُ من يسكنون حولي وعليه سيدقُّون الباب بشكلٍ عاديٍّ يتسلسل بالقوة عند عدم الرد إلى أن يصل بهم الأمر إلى كسر الباب، سينتشر الهلعُ تزامنًا مع رائحة جثتي ثم يُستدْعَى آخرون لهم المقدرة على فكِّ رباطي وإنزالي نحو الأرض وحملي بنقّالة الموتى نحو إجراءاتٍ لن يكون لي أيُّ يدٍ فيها ثم تُعرَض هذه الشقّة للإيجار من جديد مع التكتُّم على ماضيها بشكلٍ كامل!

أخذَني الاسترسالُ بهواجسي بشكلٍ شبه مُغيَّبٍ نحو أنبوب الماء المركون عاليًا فصعدت إليه ورُحت أفكُّ وثاقه ببطءٍ شديد، كانت سرعتي مرهونةً بترنُّح الانبوب فلما شارفتُ على الانتهاء من فكِّه شارفَ هو على السقوط، تتصارع داخلي بتلك اللحظات شجاعةٌ كبيرة مع مزيجٍ من الخوف والرعب من كلِّ حركةٍ قادمة

سأفعلها، بعدما أمضيت وقتًا طويلًا في فكِّ الحبل عن موضعه توجّهتُ بسرعةٍ نحو صدر المنزل ورُحتُ أبحث عن ثغراتٍ في السقف، صعدت على السرير وتحسَّست ببطءٍثم توقفت، لماذا كلُّ هذا التعقيد! إن هذه الطريقة التقليدية تتطلّبُ عناءً كبيرًا مع أنّ هناك طرقًا أسهل وأقلَّ معاناة، كنت على وشك التفكير بطريقةٍ أخرى تتطلّبُ جهدًا أقل، جلست في ذاتِ مكان وقوفي وبدتْ مظاهر التعب تظهر على جسدي وكأنني في اللحظات الأولى من التخدير السّابق لعمليةٍ جراحيةٍ حرجة إذ إنني نسيتُ كلَّ ما يشغلني بتولّي النُّعاس زمامَ أموري.

طبيعةُ الحياة

(4)

أيقظتني الحرارةُ من جديد، لا أعلم كم لبثتُ من الوقت في سريري، عيناي مغلقتان رغم أني مستيقظٌ، أحاولُ أن أعودَ حيث كنت، أسمع آثار قدميّ أحدٍ قريبةً مني بشكلٍ ملفت؛ مما دفعني لفتح عينيَّ بشكلٍ سريع، نظرتُ حولي بحذرٍ ثم نهضتُ مع ازديادِ شعوري بأنني لستُ وحدي هنا، رحت أتفقَّد المكان حولي وتوجَّهتُ للركن الآخر من المنزل، كان أحدهم يترقَّبُ قدومي بثباتٍ تامٍّ، دخلتُ وكانتْ نظراتُ الاستنكار تملأُ وجهي، السيدةُ التي تسكن فوقي تقفُ واضعةً يديها على جنبيها ونظراتُها متوجِّهةٌ للأسفل، الأرضُ ممتلئة بماءٍ يميل إلى اللون الأصفر! أيقنت بسرعةٍ أن أنبوبَ الماء المعلَّق قد سقط بعدما فككْتُ وثاقه، نظرت إليّ السيدة وقالت:

- *"ما الذي حدث هنا! كان الصوت قويًا وفزعت، طرقت بابك كثيرًا ولم تفتح لي فترجّلت وفتحتُه، كنت نائمًا عندما دخلتُ ولم يوقظك ضجيجُه"*
- قلتُ: *"آه، نعم لم توقظني هذه الخبطة لأني كنتُ في غاية التعب، أكان الصوت عاليًا لهذه الدرجة؟!"* لم يكن سؤالي بالنسبة لها محضَ استفسار إنما أخذَتْهُ على أنه تأنيبٌ لدخولها بهذه الطريقة.
- صمتتْ قليلاً ثم تأفّفتْ:*"نعم كان الصوت قويًا؛ مما أصابني بالفزع ونزلتُ مسرعةً"*، لأول مرةٍ تتحدّث إليَّ بهذا القرب مع وضوحٍ في صوتها، بدتْ ملامحها أكثر حدّةً وشحوبًا إلاّ أنّ وزنها بتناسقٍ تامٍّ مع طولها، أمعنت النظر إليها دون أن نتكلّم، ولكسرِ تلك اللحظة القلقة؛ توجَّهتْ ببطءٍ نحو الباب وقالتْ أثناء ذلك:" *عليَّ الذهاب*"
- كرهتُ صمتي في تلك اللحظة! لا أريد أن ينتهي هذا الموقف بهذه السهولة؛ لذلك اخترتُ جملةً سريعةً تحمل أكثرَ من

معنىً فقلت: "*هل نشرب قدحًا من الشاي أم ننظّف هذه الفوضى؟*"

- التفتتْ إليّ وقالت: "*نظّفها وحدك*" مع ابتسامةٍ ميتة.
- فقلتُ:"*لنشرب الشاي إذًا*"، لا أعلم كيف لهذه التعابير البسيطة والعفوية أن تكون ذات تأثيرٍ وسطوةٍ على الآخرين ولم أكنْ لأوافقَ لو كنتُ مكانها، تراجَعتْ بقلقٍ وأخذَتْ مجلسًا بجانب النافذة دون أن تتكلّم ففهمتُ أنّ فكرة الشاي كانت سديدةً وأنْ وجب عليّ صُنعُه، أخذتُ القدح المُعدَّ لها وناولتُها إيّاه.
- انتبهتْ أني من لم أصنع واحدًا لي فقالت: "*لماذا لم تصنع لكَ أيضًا؟*"
- "*لا أرغب به الآن!*"
- هزَّت رأسها ثم التفتَتْ نحو النافذة، في حين أخذتُ أنا مقعدًا بجانبها: "*هل تحبُّ الغناء؟*"
- "*لا أعرف، لم أختبر نفسي بعد إن كنتُ أحبُّه فعلًا*"

كأنها لم تأبه لجوابي أبدًا، بدأتْ تدندنُ من حلقها ثم غنّت بعضًا من أغنيةٍ شعبيةٍ قديمةٍ، شعرتُ حينها بصوتٍ مشحونٍ بالعاطفة كغناء الأمهات اللواتي تغيَّرتْ أشكالُهنَّ وأعمارُهنَّ كثيرًا دون ملاحظة ذلك، هيمن صوتُها على المكان! كانت تبدع به أكثر عندما أُبعدُ ناظري عنها؛ لذلك تسمَّرتْ عيناي نحو النافذة أملًا أن تستمر بذلك، تلك اللحظاتُ أجبرتني أن أشعر ولو للحظةٍ أنّ الحياة ليست بذلك السُّوء وأنّ جمال الاشياء حاضرٌ حتى في شدّة ترهلّها ومشاكلها! تباطأ صوتُها فجأةً وأصبح بالكاد مسموعًا ثم توقّفت عن الغناء ونظرت إليّ وقالت:

- *" هل ندمت؟"*
- *" على ماذا ندمت؟"*
- ردّتْ بضحكةٍ بسيطة ثم تابعت: "*هل ندمتَ على اللَّحاق بي وتورطّك في ذاك الموقف الذي كلّفكَ ما في جيبك؟* "
- لم أُجبْ بسرعةٍ على سؤالها ورحت أُقلّبُ بصري للأعلى كمن يفكّر بإجابةٍ مناسبة: "*آه، نعم ندمت!*"

- *"كان بإمكانك تداركُ الأمر دون خسائر! لو أنك قلتَ لي ما الذي تريدُه بصدقٍ لكان الأمرُ أهونَ عليك، هل أردتَ قول شيءٍ ما في وقتها وتراجعتَ عنه أم ماذا؟"*

إن استجوابها لي في تلك اللحظات دَبَّ داخلي رغبةً عارمة في الكلام المشحون بالعواطف، حقيقةً لم أدرك لهذه اللحظة سببَ اندفاعي في ذاك اليوم ولا أجد سببًا لذلك، لكنّ الأمر أشبه بفكرةٍ من أضعاف الأفكار التي تراود المرءَ ويحاول بدوره تطبيقها في لحظةِ حماسٍ:

- *"أنا مدجَّجٌ بالهواجس وأصعبُ ما في الأمر أن تبقى مدجّجًا بها من دون منفذٍ، وأظن أنني كنتُ أريدُ إجراء حديثٍ معكِ لا أعرف عن ماذا أو كيف أبدأُ به، لكنني تسمرّتُ وتربّطَ لساني وقتها ولم أجد إلا هذه الفكرة السيئة لتخرجني من الموقف الذي حدث بيننا، المرءُ الغارق بذاته يصعُبُ عليه أن يختلق منافذَ مرنةً بدهائه تنجّيه من أيّ موقف مهما كان حرجًا"*، عمَّ الصمتُ بيننا من جديد صمتًا قلقًا ومشبَعاً بالهموم المتبادلة

بيننا، كان صمتي بوجهها يُوحي لها بأن تذهب لمنزلها وأنه لا ينبغي لها أن تكون في هذا المكان معي؛ لذلك بادرتُ بالحديث بثقةٍ أقل: "*إنني مهدّدٌ بأن أُطرَد من هنا كما تمَّ طردي من عملي في الصباح، لم أدفع للمالك منذ أشهرٍ كما أنه وبّخني في الصباح على ذلك ومنحني مهلةً قصيرةً للدفع*"، كان الإنصاتُ يملأُ ملامحها ممّا دفعني لأن أزيد على ما قلت بعضًا من تطلُّعاتٍ أعتقد أنها ستحصل: "*ربما سأجدُ عملًا آخرَ وسأحاول أن أجد مكانًا بتكلفةٍ أقلَّ من هذا*"

- قاطعتني قائلة: "*لماذا لا تذهب خارج هذه المدينة وتترك كلّ شيءٍ وراءك كما هو، لن يتغيّر شيءٌ إلا...*" ثم نظرتْ للحبل المرمي على السرير وتابعت: "*إنّ مغادرتك هذه وإن تمَّتْ ليست إلا فرصةً أخرى للنجاة، إنك لا تهربُ بنفسك ومن الالتزامات بقدر هروبك من نفسك نحو أملٍ آخر حتى ولو كان مجهولًا، ولا أقول لك هذا الكلام إلا بعد تجربةٍ مميتةٍ أغلقتُها خلفي وهربتُ إلى هنا وحدي تاركةً خلفي كل شيءٍ تقريبًا كان يعنيني، توقّف النّزفُ الذي استمرَّ طويلًا، لم يتوّقف لأني*

وجدتُ ما عوّضني عن ذلك إنما أدركتُ معنى النسيان وطبّقته بشكلٍ متوازن مع يقيني أنّ الاشياءَ ثابتة والمرء نفسه من يتغيّر ويتبدّل، إنني أبوحُ لك بما لم يعرفْه أحدٌ عني؛ وذلك لشعوري بك"، نظرتْ مرةً أخرى للحبل وأكملت: "*دع الأولوية لكيفية إرضاء نفسك بمعنى تضميد الأنا على حساب كلّ شيءٍ قبيح مررتَ به، إنّ هذه العلّة التي تستوطن داخلك الثقيل عليكَ دفنُها هنا قبل خروجك غير الملحوق بعودة*"

كانتْ تدافع بشراسةٍ عن مكانة النفس بالنسبة لصاحبها إذ حَملَ كلامُها قوّةً لم أتخيل للحظةٍ أنها تحتويه، كان تأثير أفكارها يؤنّب داخلي وما يحمله من أفكارٍ مضادّة لها، بدت فكرة الهروب مناسبةً لي رغم طبيعتي التي تخاف المجهول وتفضّل عدمَ الإقدام على خطوةٍ تحمل خياراتٍ متعدّدة، رغم ذلك رحت أهزُّ برأسي تصديقًا لكلامها، هزّتْ رأسها أيضًا وغادرت أمام أنظاري العاجزة عن إيقافها، بدت

حاجتي لتلك المرأة في هذه الليلةِ تحديدًا عظيمةً وذات طابعٍ استثنائيٍّ لم أسبق أن مررتُ به.

تلاشى الضوء مع غياب الشمس، كان الظلام في البيت أحلك من الظلام الخارجي، ولم أكن أريدُ إشعالَ الضوء كي لا ألفتَ أنظار المُلّاك عليّ، اكتفيت بتقصِّي ذاك الضوء المنبعث من إنارة الشوارع، لم أنسَ كلامها وضلَّ يرافقني طوال الليل، كانت ملامحُها وحركاتُ جسدها أثناءَ كلامها تستوطن دماغي، ماذا لو عرضتُ عليها الهروب سويًا في أقرب وقتٍ وطبَّقنا فكرتها بالكامل في مكانٍ جديد؟! سيكون لديها الخبرةُ الكافية لتتجاوزَ بي نحو التخلُّص من المعاناة التي أعيش، لكنها سترفضُ بالتأكيد، لا أعتقد أني الشخص المناسب لتكرار تجربتها وإن كنتُ كيف لي أن أفتح ذلك الموضوع معها؟ وإن رفضتْ كيف أقنعها به؟ إنّ لساني يُربَط أمامها كأنني طفلٌ معقّد! لم أفكِّر بشيءٍ وقتها سوى كيفية إقناعها بأن ترافقني نحو فكرتها وذلك تطلَّب مني جهدًا من النادر أن أبذلَه في سبيل الإقناع، كنت على وشكِ الصعود إليها رغم تأخُّر

الوقت بالإضافة إلى حذري من قبضة الدائن، رحت أبحث عن أيّ شيءٍ في مكان تجوُّلها وجلوسها وآخذُه حجةً أو مفتاحًا للدخول معها في صُلب ما أريد، لم يطُلْ البحث ليقيني بعدم وجودِ شيءٍ، شعرت بذلك وأنا أتحسّس مقعدها ببطءٍ شديد، لماذا عليَّ أن أحيدَ عن الوضوح وأختلقَ الحجج المكشوفة والبالية؟! إنّ الصلة تكمُن داخلي، ذاك الخوف الذي يتردَّد فيَّ لا يمكن أن يختفي بسهولةٍ، لم يكن ما يمليه عليّ عقلي راجحًا في كلّ المرات التي ألجأُ إليه بها؛ لذلك لن أجازف بجلدةٍ جديدةٍ لذاتي، رحت أتجوّل في محيط السكن مرارًا ممّا زاد من تعبي ويأسي وعليه قررت أن أبدِّل ملابسي وأن أخلد إلى النوم.

أثناء تهيئة الأجواء للنوم تحسّستُ جيبي الذي يحمل مفتاحَ البيت وقطعتي نقدٍ معدنيتين وورقةً صغيرةً بيضاءَ، أخرجتُها ورحت اقرأُ مفادَها فكانت تحتوي على رقمِ هاتفٍ قديمٍ لا أعرف إلى من يعود، ومن هنا جاءت الفكرة! سأسأل السيدة إن كانت تملك هاتفًا وأني أودُّ الاتِّصال برقمٍ مهمٍّ سأختاره من الأرقام

الموجودة في جيبي، تلك كانت خطّتي، إني محصورٌ بمدىً قصيرٍ يحدُّه الضعف المتضمِّن للخجل أو الجُبن، تكوّنت شخصيتي على ذلك طوال السنين الفائتة، كانت تجاربي مع الإناث شبهَ معدومةٍ ولم تكن لتنتجَ شيئًا يميل نحو العاطفة باستثناء مخيِّلتي التي تبتكر وتمحو ما تشاء، لم أتخِّذ العديد من الاحتياطات والخطط البديلة للصعود بل اكتفيتُ بما قرّرت، كانت الأدراجُ المؤدِّية لبيتها تحمل خيارين إما الصُّعود للجحيم أو الوصول للنعيم ويعود ذلك لمدى تجاوُبها معي أو مع ما سأطلبه منها، درجةٌ تأخذُني للأُخرى من دون توقُّفٍ ولا مجالٍ للرجوع، البابُ هو الهدف، بابٌ مؤصدٌ وظلامٌ يؤرِّخ اللحظات حوله، ارتفعت قبضةُ يدي لصدر الباب بضرباتٍ متدرِّجةِ القوة صدر من خلالها صوتٌ عذبٌ يتساءل بـ:

- "*مَن الطّارق؟*"
- توقّفت يدي عن ذلك بمجرد سماع صوتها فقلت: "*إنه أنا*" دون ذكر أيّة تفاصيلٍ أخرى، عرفتْ صوتي؛ لفكّها قفل الباب بمجرد أن قلتُ كلمتي، لم تفتح بابها بشكلٍ كامل بل اكتفتْ

بإظهار جزءٍ صغيرٍ منها بحيث تستفسر عن سبب مجيئي بإيماءاتٍ متبوعةٍ بكلمة: *"أهلًا!"*

- بكلماتٍ متردِّدة بدأتُ بنيلِ مسمعها، أخرجتُ الورقة التي تحتوي الرقم ورحت ألوّحُ بها وأقول: *"أودُّ الاتصال بهذا الرقم للضّرورة"*
- أجابتني بعد صمتٍ أجريتُ من خلاله مراجعةً لِما قلته لها: *"ستكون مكالمةً سريعةً ففاتورةُ الهاتف عندي لا يمكنني تحمُّلها"*، هززْتُ رأسي بتفهُّمٍ ثم فتَحتِ الباب وتنحّتْ.

أخرجتُ الورقة التي تحتوي الرقم وفتحتُها ببطءٍ، كانت الأرقام الموجودة تكاد أن تختفي وكان يجب عليّ أن أدقِّقَ فيها لأراها جيّدًا، جلستُ بجانب الهاتف ثم وضعتُه على فخذي ثم رفعت السماعة وضغطت على الأرقام السبعة الموجودة بالورقة، إني أجهل الشخص الذي أتصِّل به تمامًا ولا أعرف ما الذي سأقوله له، كان بإمكاني تغيير الأرقام وكتابةُ ما لا يصلحُ منها للاتصال كأن أكتب سبعة أصفارٍ وأنتظر قليلًا ثم أتبرّمُ أمامها لعدم الرد، لكن

كمال المشهد أغراني ممّا جعلني أُكمله للنهاية، ضرباتُ الهاتف تصدح في أذني والسيدة متسمِّرةٌ أمامي كأنها تتشوَّقُ أن تسمع المكالمة وفي الوقت ذاته كنت أصطنع لغةً ما سأُجريها في حال ردِّ المستقبل، بعد انتظارٍ ممتلئٍ بالنظرات لم أتلقَّ الاجابة منه، ومع أن هذا هو المراد أُصِبتُ بحُرقةٍ ما لا أعرف سببها عند إغلاقي السماعة، بدت الدنيا مشوَّشةً أمامي ولم أدرك وقتها ما الذي أفعله هنا! وهنا أقصدُ بوجودي في الموقف الذي يتضمّن الأحداث والأشخاص وليس المكان تحديدًا، لم تسأل السيدة عن أية تفاصيلٍ تتعلّق بالذي جرى رغم فضولها الذي كاد أن يتدرّج من عينيها نحو المكان، أعلمُ أنها تمتلكُ الدهاءَ القادر على سحبي إلى ورطة الكلمات لكني هنا بالأصل لأتكلَّم وكل ما أريده هو أن أبدأ بالمقدمة، إنّ وقوفها أمامي بهذا الشّكل سببَّ لي الارتباك ولم تُمضِ على هيئتها هذه طويلًا إذ انتقلتْ بخطواتٍ خَجِلة بجانبي وجلست كيفما أنا جالسٌ حيث أنها نسختْ وضعيةَ جلوسي تمامًا، اليدُ في اليد مرتكزاتٌ على الرّكبة والظَّهرُ في تقوُّسٍ يمتدُّ حيث الرقبة أما الوجه فكانت أنظارُه تتجّه نحو الأرض بشكلٍ ثابت،

مرَّ وقتٌ ليس بالقليل على وضعيتنا التي قطعتُها بصوتٍ خرج مني لا يشبه صوتي الموجود في مخيلتي:

- *"سأهرب غدًا! نعم سأهرب ولن ألتفت لشيءٍ خلفي كما أني سأنسى هذا المكان من عالمي، إنّ إحساسي نحوكِ يجب أن يؤرَّخ ليس لتميُّزهِ أو تميُّزي إنما لأنه كلُّ ما أملك! كما أنه المسالم من بين أحاسيسي المليئة بالحقد الظاهر والدفين والذي أوْدى بعلاقاتي الإنسانية نحو الهلاك، كان هذا السلبيُّ من الإحساس قديمًا، منذُ بلوغي ضلَّ يجتاحُ روحي كشبحٍ عاتم مما دفعني للنقمة والاشمئزاز من دون انقطاع! صعدتُ هنا إليكِ وأنا ممتلئٌ بالاحتمالات، قبل زيارتكِ إليّ كان الخلاصُ هو الاحتمال الأقوى والآن الهروب ونشّ الحياة من جديد، لكنني لن أستطيع ذلك وحدي! أريدكِ أن ترافقيني نحو فكرتكِ التي ستكتملُ بوجودكِ الناضج بها"*، أثّر بها صوتي الأجشّ الذي كان يحمل صدقَ الكلمات وأكثرها تأثيرًا على مرِّ حياتي، كانت كلماتي تُقرِّب السيدة منّي وتجعلها أكثر إصغاءً وليونة، دفعها ذلك للبكاء ربما أو أنها

كانتْ تعزم على البكاء في إحدى اللحظات لكنها تماسكت، ثم تابعتُ: "*إني عازمٌ على الرّحيل وأشعر بالضِّيق حيال العواقب كلما لمَعتْ في ذهني، لم تكن غايتي أن أرى دموعكِ تنهمرُ أمامي علمًا أني أشعر برغبةٍ كبيرةٍ في البكاء لكني أتظاهر أمام ذاتي أنّ شعوري تجاهَ فكرتك أشدُّ قوةً من رغبتي في البكاء أمامك*"

- اقتربت بشكلٍ مفاجئٍ مني ولفّت عنقي بذراعيها وراحت تقولُ بصوتٍ ممتلئ بالعطف: "*ما كان يجب أن أفعل هذا! ما كان يجب أن أقولَ ما قلتُه لك! أنا ممتلئةٌ بالأسف!*"، بدأت الدموعُ تنهمر متأنّيةً على خدَّيها مما زاد صوتها رقّة ثم تابعت: "*إنكَ ومنذ مدّةٍ استرعيتَ اهتمامي كثيرًا بتفاصيلك ولم تزلْ، لكن ما الذي سيدفعني لمرافقتك؟! لا يمكن أن أشعر بما كنتهُ في السابق مجدّدًا ومع أنكَ مختلفٌ لكنكَ بالنهاية رجلٌ ذو منطقٍ غريبٍ عني في نفسك*"، أبعدتُها عني بمجرد شعوري برفضها لكنّ عطفها نما وتكاثر وأصبح واضحًا، كنت على وشكِ النهوض لكنها قطعته قائلةً: "*إنّ*

قلبي يزداد ثقلًا وأشعر بغرابةٍ تجاهَ ما يحصل ويأخذني التفكير في طبيعة البشر، إنهم يتصرّفون كما ينبغي لهم أما نحن فإننا غرباءٌ تعترينا الرصانة والرهبانية التي لن تلائم هذه الحياة حتى في عمقِ راحتنا، إني أعلم أنَّ حياتك الصامتة والغريبة تُخفي أفكارًا ومخاوفًا تتزايد كل يوم وأعلم أنّ وجودي معك سيجعل منك أحدًا نافعًا أمام ذاتك وهذا هو الأهم، لكن ماذا سأُحصّل أنا من وجودي معك؟"

- كانَ ميولُها للتفاوض الذي بيَّنتْه لي من خلالِ سؤالها الأخير كوميضٍ لإمكانية اقناعها، عزمتُ لحظتها أن يكونَ جوابي ذو حجّةٍ متينة، أخذت وقتًا ليس بقليلٍ لأصوغَ جوابًا من صدقِ شعوري الراكض في أعماقي ممّا ألزمني النظرَ إليها لنكون في الصُّورة مكتملين بينَ تهيُّج المشاعر النادر بالنسبة لي على الأقل، عيناها ثابتتان وتقاومان الرمش متوجِّهتان نحوي كأنها تنتظر اقتراحًا يسمحُ لنا أن نسير في مدىً واحدٍ ذو بعد طويلٍ وبهيج، لم أستطعْ أن أكذب في وقتها فالكذبة بمثابةِ خيانةٍ كبيرة لهذه اللحظات؛ لذلك حاولت جاهدًا أن يكون

كلامي من بين كتفي فقط أي أنه متمحورٌ حول الشّعور والعاطفة وليس له أيُّ علاقةٍ بالغد فقلت لها بهدوءٍ: "*ماذا عسايَ أن أفعل؟ هل أبرُم وعدًا سأخلفه أم أعطي ببذخٍ ما لا أملك أصلاً؟! كلُّ ما أعرفه عن ذاتي أنها في تمام الضياع وتمثّلتِ فجأةً أمامي كمرشدة مما زاد بي الرغبة في التقرُّب منكِ والسّير معك، انكِ وحيدةٌ هنا لكني أشعر أنّ قلبكِ مليءٌ بالحياة والفرح، إنّ الوحدة إن لم تقتلك بشكلٍ سريع ستقتلكِ على المدى الطويل بتمرّس؛ لذلك يجب أن نسرع في قرارنا هذا وأن لا نجعل من التخطيط سيّدًا علينا!*"، دخلنا مباشرةً في نقاشٍ لا ينتهي ولم نفقد فيه أفكارنا التي التقينا بها، إنّ مهمة الإقناع تتسمُّ بصفاتٍ كلُّها تتمحور حول تعذيبٍ للطرفين كما أنه يحتاجُ مجهودًا لا أحمله أو أتحمَّله.

- ردّتْ محتجةً على كلامي: "*نحن مشحونان!*"
- عمَّ بعد ذلك الصّمت من جديدٍ، كان الليل يشتدّ تألقُّه مع مرور الوقت وعلى غِرار عاداته كان أكثر هدوءً، هذه هي الليالي المريبة ذات الصّلة بأحداثنا، نهضتُ وتوجّهت نحو

النافذة قائلًا: "*إنها ليلةٌ ممطوطة، من الواضح أنها لا تخبِّئُ الأمل خلفها، إنني منهم أولئك الذين تمكّنُوا من رؤية ما في الأشياء حتى لو وُضِع على عينيَّ عصاباتٌ*".

بدا حديثًا شاقًّا عليها ولم تعُد تتحمّل كأنها أُصيبَت بخيبةِ أملٍ، جفّت دموعها وتحوّل وجهها إلى قمّة الاحتجاج ليس على كلامي فقط إنما على وجودي، العزمُ لديّ يعود طبيعيًا في مرحلة اللاوجود، لم أستطع النظر إليها بعد تقلُّب وجهها، يدايَ تفتقدان شيئًا ما ودماغي أيضًا! أنظر إلى أصابعي كخبيرٍ وأُتبِعُ ذلك بسحبِ أقدامي ببطءٍ نحو الباب، نهوضها متزامنٌ مع وصولي للباب كأنها تستعجل خروجي منه، فتحتُ الباب بعجزٍ ثم نظرتُ نحوها: "*إنكِ ألطف من تعامل معي*"، ردّت علي ببسمةٍ مثيرةٍ للاهتمام غيّرتْ بها معالم وجهها بشكلٍ ملفت، ثم التفتُ وشرعتُ في الخروج.

ضربت ناظريّ بعد أول درجتين نحو الأسفل حيث كان هناك ثلاثةُ رجالٍ يصعدون السُّلم بسرعةٍ، كانت رؤوسهم متقاربةً كأنها جبالٌ بعيدةٌ عليّ يحيطها سرابٌ وغيومٌ لا يمكنني أن أراها ثابتة، تسمَّرت مكاني ورحت أسترقُ البصر المدمج بالظلام، توقفُّوا جميعًا على بابِ شقتي وراحوا يتشاورون في أمرٍ ما، لم أستطع أن أتذكر إن كنتُ قفلت الباب خلفي، تفقَّدت جيوبي وكان المفتاح موجودًا مع ذلك لم اتأكّد بعد، قام أحدهم ومن الواضح أنه أكثرُهم سيادةً بمسكِ يد البابِ ببطءٍ ثم فتحها لكن الباب كان مقفلاً ممّا دفعه لتحريك يده على قبضة الباب بشكلٍ أسرع، ضلَّ يفعل ذلك حتى قاطعهُ أحدُهم بيده وأبعده ثم رجع للخلف وضرب الباب بقدمه عدّة مراتٍ حتى تناثر الضوء على أجسادهم منبعثًا من شقّتي، إنهم من أتباع المالك وهذا عقابُ غير المالك، سيُرمى بأغراضي إلى مزبلةٍ ما وإن وجدوني سيُلحقونني بها بعدَ التأنيب الجسدي الذي أعتقد أنه سيكون صعبًا وقويًا، طال غيابهم في الداخل دون أن يصدُر صوتٌ لتكسيرٍ أو خلعٍ لشيءٍ ما، إنهم يبحثون عمّا هو أهمُّ من ذلك

لكنهم لم يجدُوا مرادهم ولن يجدوا شيئًا باستثناء هذا الأثاث من الخردة الذي يتمايلُ ليشبه صاحبه، بدأوا بالانسحاب حاملين معهم أغراضي كما توقّعت، نزلوا ثم صعدوا عدّة مراتٍ وفي كلّ مرةٍ كانت تمتماتُهم تزداد حدّةً ووجوههم تميل للعبوس، اكتفيت بمراقبتهم جالسًا على قمّة الدرج حتى انتهوا من نقلِ كل شيءٍ تقريبًا لمكانٍ ما، صعد فجأةً رجلٌ رابعٌ أقلُّ مروّةً منهم يحمل بيده ميداليةً كبيرةً معلّقًا عليها الكثيرُ من المفاتيح، راح يجرِّب واحدًا تلو الآخر ببطءٍ شديد، حتى توصّل للمفتاح المطلوب، دخل البيت وأطفأ النور ثم أقفل الباب بشكلٍ محكمٍ وغادر.

إنّ محاولة فتحي لذاك الباب مجدّدًا ستعني لهم الكثير، إنّ خوفي المتبوع بالهرب منهم وضع في نفوسهم بعضًا من الانتصار رغم أنهم خسروا مبلغًا لا يستَهان به من المال أما إن ترجّلت وفتحتُه ستنقلب الأمور بيني وبينهم إلى تحدٍّ من الممكن ألا يخرج منه جسدي غير الجاهز لأيِّ شيءٍ؛ لذلك تسمّرت مكاني

منصتًا للأصوات المنبعثة منهم عند المدخل الرئيسي حيث يجلسون، استندت على الحائط وأغمضت عيناي ثم مددْتُ أقدامي لأثبِّت بها وضعيتي على الحائط، صوتُ الليل ينهمر من كلِّ فتحةٍ موجودة حولي، لا ذكرياتٌ تحيطني ولا مستقبل! أما الحاضر، فهو هذه اللحظاتُ التي تمرُّ ببطءٍ وتتكرّر بألمٍ كأنها الحقيقة وعليك أن ترضى تمام الرضى بها ولا يمكنك نكرانُها أو أبعادها بل المشي تحت ظلِّها فقط.

بابُ السيدة مؤصدٌ، حاولت الابتعاد عن عتبتها لكن الأمر ازداد صعوبةً مع انتشار الهدوء في المكان، سأُثير الضوضاء في حال تغييرِ مكاني؛ لذلك ركدتُ فيه وكدت أن أغفى لولا هواجسُ الفزع وظلال الأوهام التي تزورني كلما أغمضت عينيَّ، إنني أمام احتمالاتٍ مجهولة كدتُ أن أُنهيها لولا هذه المرأة التي أشعلت فيَّ شمعةً تكسر الظلام داخلي، إنها إشارةٌ للاستمرار في طرق الحياة الموجودة خارج أُطرِ حياتي هذه، لا يوجد عندي ما سأخسره؛ لذلك سأتابعُ مشورتها التي أظنُّ أنها ستكتمل بها، رغم أني سبّبتُ لها

بعضًا من عدم الهدوء وربما خيّبتُ ظنها بعدم قولي ما تريد هي أن تسمعه لكني سأحاول من جديدٍ طرقَ بابها، آخر الأبواب وأقربها إليّ.

انتفضتُ بحذرٍ نحو بابها ثم وضعت يدي عليه وطرقته بيدي مرةً واحدة ثم عاودت الكرّة مراتٍ عديدة من دون استجابة وعليه عدتُ إلى مكاني وإلى وضعيتي الأولى، إنها نائمةٌ ربما أو أنها تخشى أن تفتح الباب أو أنها انتحرت! فُتِح بابُها بالتزامن مع آخرِ خيارٍ فكّرت به، نادت بصوتٍ خافت:

- "*مَن الطارق؟*" ثم أعادت: "*مَن!*"
- انتفضتُ من جديد وقلت: "*إنه أنا، لا أعلم ما الذي أفعله هنا في هذا الوقت لكن الأمر ازداد سوءًا، يبدو أنّ المالك أمر بإخلاء شقّتي من أيّ شيءٍ يخصُّني، جاء ثلاثةُ رجالٍ وأقفلوا الباب بالمفتاح ثم غادروا لكنّ صوتهم ما زال موجودًا في الجوار، أظنهم جالسين عند المدخل الرئيسي مما يعني استحالة خروجي*"

- اتّسعتْ فتحة الباب حيث أخرجت جسدها منه ثم أطبقته على جنبيها بحذرٍ ووضعت يدها على رأسها إذ ثبتّتها بكوعها المسنود على الجانب العلوي للباب وقالت: "*ماذا ستفعل الآن؟*"
- كان سؤالُها هذا بمثابة الرجوع من بداية اليوم مع تتابع الشّرح إلى هذه اللحظة، أجبتُها باتّزانٍ مصطنعٍ: "*لا أدري، لكن سأبقى هنا حتى أتأكّد من رحيلهم ثم أغادر*"

كنا في أشدّ لحظات الوعي بالواقع الخاص بي حيث ساهم ذلك الموقف في إدراك حقيقتي العاجزة تمامًا عن فعل شيء مما دفع بها لتدارك الموقف وإنهائه عندما أفسحت المجال لي كي أدخل، لم أعارض ذلك إذ توجّهتُ هناك مسرعًا عندما أعطتني الإشارة للدخول، أقفلتِ الباب ثم سارتْ نحوي وقالت:

- "*ستبقى هنا حتى يحين الوقت المناسب لرحيلك*"، بدتْ نبرة صوتها تشيرُ إلى بداية انفعالها كأنها تشعر بأنّ أمراً كبيراً سيحدث قريبًا، جلَستْ في ذات المكان الذي كانت تجلس

فيه قبل ذلك، نظرتْ إليّ بعبوسٍ وارتيابٍ احتجاجًا على وقوفي فجلستُ مباشرةً بذات المكان أيضًا كأننا لم نكتفِ بالجلسة الأولى ونريدُ المضيّ بها أكثر، نظرتْ فجأةً نحو رجليّ وقالت: "*لماذا لا تريح أقدامك من هذا الحذاء؟*"، لم يكن في نيّتي أن أخلع الحذاء مع أنه يسبِّبُ لي ألمًا في أصابعي لكنّ الأمر مرتبطٌ بشعوري بالجاهزية لمِا سيحدث، أجبتها أني بخير ولا أودُّ أن أنزع حذائي، ثم هزّت رأسها بعطفٍ وعادتْ لوضعيتها، اعتصمنا بالصّمت المحمّل بالأجواء المشحونة، ذاك النوعُ من الصمت لا يأتي من قلّة الكلام إنما من ضخامته رغم ذلك كلانا التزم به بعضَ الوقت، كان جسدي ساكنًا كما هو لساني على عكسها!

- لم تتوقّف هي عن تقليب بصرها في كلّ مكان مما دفعني لأن أتكلّم: "*سأرحل قبل بزوغ الفجر أو قبل اندثار الضوء، كلُّ ما عليّ فعلُه هو الوصول للمدخل الرئيسي ثم إلى الجانب الآخر من الشارع، وإن صادفت أحدهم سأركض بعزمٍ نحو البحر، لن أدعهُم يمسكونني بسهولةٍ وإن*

أمسكوني سأحاول مقاومتهم والفكاك منهم، ربما أُقاتلهم حتى يسطعَ الموتُ فوقنا جميعًا وتلمع أنيابُه على أحدنا، لكن إن لم يحدث هذا كُلّه أين سأذهب؟ إنّ الأمور التي نتوقّع حدوثها حتى لو كانت عاقبتها سيئةً أهونُ عندي من ذاك الأمر المبهم الذي يغطّيه ضبابُ العقبات الخفيّة"، كلامي كان كخطابٍ موجَّهٍ لجمهورٍ محجوبٍ لا ردَّ فيه! مما أثارَ حفيظتي:"*ماذا عنكِ؟ كيف لصمتك هذا أن يتفوّق عليّ؟! إنكِ تسحقينني به"*

- بدأت نظراتها تتوجّه نحوي بعطفٍ، كان وجهُها يصغي إليّ بشاعريةٍ ثم قالت: "*أصغِ إليّ، علينا أن نتحدّث عمّا سيحصُل بنظرةٍ واقعيةٍ لا كما نريدُها نحن، لا أحد يعلم! ربما إن حصلتَ على حرّيتك وقتها ستقرّرُ ما أفضل الأمور بالنسبةِ لك، أظنُّك اكتفيتَ بما في دماغك، حان الوقت لتُعطي لنفسك الفرصة، لا بدَّ أن تقبل بما رفضتَ سابقًا وأن ترفض ما أنتَ به الآن*".

- *"نعم سأرفض، سأرفض أن أترُكك هنا وأن تتركيني أذهبَ وحدي، لم أفصحْ يومًا عن مشاعري القوية كهذه لأحدٍ لكنّ هذه الليلة مصيريّة، عليكِ أن تذهبي معي وكما قلتِ للتوّ أنّ علينا أن نتحدث عمّا سيحصل بنظرةٍ واقعية ليس كما نريدُها نحن، سأدعُ الأيام المقبلة تتحدّث عن حاضرها الذي سنعيشُه معًا بلا وعودٍ لا أقوى عليها وحدي لكني أعدكِ إن كنتِ معي أن أصارعَ عقباتها إلى أن أصل لها"*، مع أنّ هناك ما يندي داخلي بأن أتوقّف عن هذا الكلام لكنّي قلتُه، كان كلامي صادمًا لنا ولم أعهد نفسي بهذا الشّكل من قبل!
- زادتْ كلماتي وجهها مشاعرًا حتى أنّ عيناها تلألأتْ للبكاء وأطرافُها غمرَتها الرّجفة، ابتلعت ريقها بصعوبةٍ ونهضت وراحت تجرُّ أقدامها نحو النافذة ثم استندت برأسها عليها وقالت: *"إنك لن تعلم مدى حاجتي لكَ أيضًا وإن علمت بذلك فلن تشعر به، إنّ الماضي كالصّوت المرعب الذي يشاركني حياتي هذه وبنفس الوقت لا أريدُ أن أضيّع فرصتي معك، إنني مشتّتةٌ وتائهة بين الاحتمالات، الأمرُ لن ينتهي*

هنا! سأرافقُك بذات عزيمتك لكنّ الموضوع لن يتمّ إن كنتُ فقط بالنسبة لكَ بابَ عبورٍ نحو حياةٍ جديدة، هذا أمرٌ مقزّزٌ ومؤذٍّ! بل أريد أن أكون الباب الذي تسعى له في صميمك، ستكفُّ حينها عن البحث الخارجي، وستكرِّس بحثك في داخلي الذي سنغرق به".

أشعرتني كلماتُها الأخيرة بأني أغرقُ بالمسؤولية التي أتهرّب منها وأنّ عليّ فعلًا أن أخوض في هذه العلاقة كي أتنفسّ هواءً جديدًا، ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا شيء! المتاحُ لديّ هو أن أوافقها وأن أشدِّد على يديها من دون اعتراض، نهضتُ حيث تقف وقلتُ لها أني سأحاول بكامل طاقتي أن أكون كما تريدُني، ثم تبسّمت كعادتها وتوجّهت لغرفة نومها بعدما أيقنتُ أنّ هذا الوقت من الليل جديدٌ عليها، همستْ قبل أن تُتمَّ دخولها لغرفتها بأنّ الأريكة جاهزةٌ للزوّار، بمجرد أن دخلتْ هيَ عدتُ للأريكة ورحت أفكُّ وثاق حذائي بسرعةٍ بعدما أحسستُ أن قدميَّ تكادان أن تختنقا من ذاتهما، هذه هي الرائحةُ التي

منعتني طوال اليوم أن أخلع حذائي، لا يمكن للآدميّ مهما كان قذرًا أن يتحمّلها، ذهبت مسرعًا نحو الحمام وسكبت الماء فوق جسدي من دون أن أقلعَ ملابسي، انتظرت قليلًا في الحمام كي أجفّف جسدي، لم يكن انتظاري لجفافٍ مطلق إنما لعدم تطاير الماء مني في أنحاء البيت، عدت إلى جانب النافذة وجلست على كرسيٍّ كنت قد رأيته مركونًا قرب الحمام، لم أعاني كثيراً من كوني مبتلًّا إذ إنّ الرياح الساخنة كفيلةٌ بتجفيف ملابسي بشكلٍ سريع.

إنه لأمرٌ غريبٌ ما يحدث هنا، ما الذي أفعله في هذا المكان؟ وكيف لها أن تثق بي بمجرد قولي ذلك؟ لا أعلم غرابةً مثل غرابة الأنثى حيث أنها تستطيعُ أن تحتويك ككتلةٍ متعفّنةٍ وقذرة لا تملك شيئًا شريطة الصّدق، وأيُّ صدقٍ هذا! إنه الصدق الواجب في النفس البشرية التي تميل نحو الصفاء، إنها الأقرب للأنّا السليمة من تلك التي تتعفّن كلَّ يومٍ لجعلِ الحياة مؤثّثةً بمظاهر الترف والجمال المزيف، لكنَّ الذي أوْقعْنا بعضَنا به

يحتاج للثبات، ثباتي أمامها وأمام كلمتي وثباتُها، مع قدرتي على المضيّ قدُمًا في نيلِ حياةٍ سعيدة وهذا بحدّ ذاته أمرٌ مرعبٌ استنادًا لحقيقة الواقع المختلف تمامًا عن الوعود والآمال التي نبطنُّها، لم أكن أريدُ النوم بسرعة على عكس جسدي الذي يعدُّ النوم الحاجة الوحيدة التي لا يمكنني أن أميل عنها، لكنّ الأسئلة التي كنتُ أطرحها على ذاتي قاومتْ حاجة النوم، أسئلةٌ من الخيال المحبوك من عمري القاصر مرورًا بحياتي البسيطة وحتى هذه اللحظة وأسئلةٌ من الواقع تصيبني بالفزع إن وجدتُ لها إجابةً أو لم أجد وأسئلةٌ تتعلق بمكاني هذا وأخرى عن محاولاتي العديدة للتلاشي، كيف سينتهي بي المطاف في حالِ حلول قربهِ؟ وكيف سأسير نحو الأبد إن كان المطاف طويلاً؟ لا بدّ من رسم المراحل التابعة ولا بدّ من تخيّلها، تخيُّل المرحلة العمرية القادمة وتخيُّل القفز من مرحلة الوحدة إلى حياةٍ تشاركيّةٍ ذاتِ قواعدَ مختلفةٍ ومشاعرَ مختلفة، كلُّ شيءٍ تقريبًا سيختلفُ قريبًا، هكذا تقول المؤشّرات وهكذا يقول شعوري الذي أصدّقه

أحيانًا، لا بدّ من الجاهزيّة التي تمنحني قوةً للتغيير، لا بدّ من الدخول للحياة القادمة ركضًاّ!

(5)

استيقظت في صباح اليوم التالي على صوت الباب الذي قُفِلَ عليّ من الخارج، كان الوقت باكرًا حيث كانت الشمس تداعب النوافذ بخجلٍ ولم يكن الضّجيج قد حضر من السوق نحو المنازل العالية، أسندتُ ظهري وجلست في المكان ذاته ووضعت يدي فوق رأسي متطلّعًا ما هو أمامي، كانت مجموعةٌ من الحقائب متفاوتة الأحجام تصطفُّ أمامي كأنها تنتظر استيقاظي، على حسب ذاكرتي لم تكن هذه الحقائب مصفوفةً في الليلة الماضية، نهضتُ مسرعًا نحوها واخترت أكبرها وفتحتها حيث تكدّست الملابس داخلها، ملابسُ شتويةٌ مختلطة بأكياسٍ مغلقةٍ بإحكام، ثم فتحت التي تليها حجمًا وكانت تتزاحم بها أشياءٌ قابلةٌ للكسر منها أوانٍ زجاجية تمّ لفُّها بقطعٍ من الفلين، متى تمّ كلُّ ذلك! لم يخطر ببالي حينها شيءٌ! ضلّت الحقائبُ مبهمةَ المهمة من دون محاولةٍ لتأويل ذلك فلم أكن أريد إرهاق ذاتي بالاحتمالات نظرًا لحالتي الصباحية المحتاجة لأشياءٍ عدّة للتوازن، لهذه اللحظة لم

يربكني غيابُ السيدة لكنّ الأمر تماثل أمامي كأنه فخٌ، أيُعقل أنها ستبلِّغ عن مكاني للذين يبحثون عني؟! هذا الشيء واردٌ بدليل أنها قفلت عليّ الباب من الخارج، فزعت بعدها كالمجنون أجوبُ البيت باحثًا عن مخرجٍ لأهرب منه، أنا في ورطةٍ تحتمل وجهًا حقيقيًا ووجه مُبتدعًا مني، اقتربت من الباب، كان هناك ضربُ أقدامٍ عديدةٍ لأكثر من شخص، تسمّرتُ مكاني وبدأ الشكّ يزداد داخلي، إنهم الآن خلف الباب تمامًا أسمعُ لهاثَهم جيّدًا، لهاثٌ رجوليٌّ مسحوبٌ بكُحّةٍ خفيفة، هكذا تمَّ الإمساك بي أو لم يتمَّ بعد، قاطعتِ السيدة الصّوت الذي يصدحُ داخلي:"*ابتعدوا قليلًا، سأتأكّد من اكتمال الأمر للتّسهيل عليكم*"، ثم وضعت المفتاح في خرم الباب وراحت تفتحُه ببطءٍ شديد، ركضت مسرعًا إلى غرفتها، صوتُ الباب يُقفَل من جديد، لم أعهد من قبل أن اختبئ بين هذه الأشياء لكني مختبئٌ دومًا بذاتي المرعوبة، دخلت عليّ السيدة بتعجُّبٍ ثم قالت:

- "*ماذا تفعل هنا؟*"

- نظرتُ حولي بتعجّبٍ ثم قلت:*"أحاول الاختباء، هل أتيتِ بهم ليأخذوني!"*
- راحت تتدرّجُ في ضحكتها حتى خافتْ أن يسمعها من هم في الخارج ثم قالت: *"لا يمكنني أن أفعل هذا بك، إنهم هنا لينقلوا هذا العفش إلى مكانه الجديد"*
- *"عن أيِّ مكانٍ تتحدّثين؟"*
- *"إنه الآن مُلكٌ لأحد الباعة المتخصِّصين بهذه الأغراض، سنرحل من هنا قريبًا لكن ما أريدُه منك أن تختبئَ الآن في.. في الحمام؛ لأن الرجال الذين سيحملون الأغراض هم ذاتُهم من أفرغوا شقّتك البارحة، إنهم يعملون عند المالك، هيّا اذهب!"*

ركضت على مرأىً منها نحو المخبأ وعلاماتُ الاستغراب تجتاحني تمامًا، إنها الأحداثُ التي شهدتها ليلةَ أمسٍ ضمن هواجسي ستحدُث أو بدأت بالفعل، سحبت ذات الكرسي وجلست منصتًا خلف الباب، ما الذي يحدث؟ أحقًّا ستتخلصُّ

المرأة من كلّ شيءٍ لأجلي؟ من أنا حتى أُحدِث كلّ هذا لها؟ إنها تجازف وتخاطر للمجهول مع مجهولٍ مثلي تستقرُّ فيه التخبطات، إني أتكلّم وأُنصت إلى كلماتي وأكاد أن أُكذِّب نفسي حيث أني طوالَ حياتي أفكِّرُ بكيفية الفكاك والقفز من نهارٍ إلى آخر وكيف أقضيه بمفردي بعيدًا عن كلّ شيءٍ بحيث أضلُّ بعيدًا عن اللمس، أما الآن فأنا أعجُّ بالتفكير بها! ربما لم أفهمها تمامًا لكنها قوّضت أسفي المندثر بالوداد، سأتألّم كثيرًا من أجلها بعد أن تفعل هذا كلّه من أجلي ولا تنالَ بالمقابل معنى السعادة المنشودة!

بعد خفُوت الضّوضاء التدريجي، عادتْ أقدامُها الناعمة إلى الظهور من جديد وراحت تنادي بصوتها الناعم:

- "بإمكانك أن تخرج الآن، كلّ شيءٍ على ما يُرام"
- توجهتُ مسرعًا نحوها ثم أخذت يدها وضغطتُ عليها بشدّة، كانت مضطربةً قليلًا وخجلةً بعد ملاحظتها أنّ عيناي تضحك لها في الخفاء؛ مما دفعها لتجنُّب ذلك عن طريق المراوغة،

قلت بصوتٍ هادئ:"*إنك تدركين على الأقل أننا قادرون على العيش مهما كانت الظروف وتعرفين أيضًا أني أبطّن الصدق ولو لم تكوني على علمٍ بذلك لطردتنني في بداية الأمر، أودُّ أن أقول لكِ ما أشعر به الآن، لكنني عاجزٌ فعلًا عن التعبير خصوصًا إن كان شعورًا لم تعهده داخلكَ من قبل، إنه القوةُ التي تتواكب مع موقفنا هذا وخوفٌ غير مسبوقٍ فيه نكهةٌ من الجمال لا يمكن أن أخبئها*".

ضلّت السيدة تصغي إلى كلماتي ذات الثِّقل الهارب من صدري نحو صدرها ثم استدارت بهدوءٍ باحثةً عن مكانٍ لتجلس به؛ فرحت مسرعًا لأُحضر الكرسي المركون في الحمام، وضعته تحتها تمامًا ثم جلَستْ بهدوءٍ، كانت تحاول ألّا تقول ما سيقطع عليّ أفكاري، كانت تصغي لي بانتباهٍ وحنانٍ أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، حاولتُ أن أستردَّ كلماتي التي هيّجها شعوري نحوها لكنّ لساني تكبّل بتلك اللحظة ممّا دفعها إلى التّكملة عني: "*إن كلماتكَ تذهب إلى القلب بشكلٍ غيرِ معهود مما يمنح صدري*

حياةً كاملةً ذاتِ طابعٍ غريبٍ على كلينا، منذ بلوغي وأنا أجزم بعدم الإيمان بالآخرين مثلك تمامًا مما تسبّب لي بالألم والاذى وكذلك أنت، المرءُ يملك في داخله جوانبًا لا تُحصَى من خيرٍ وشرٍّ وبؤسٍ وفرحٍ لكنّ ما أريده من هذه الجوانب كلِّها هو جانب الحب، أريدُ فقط أن أحبك! لكن كيف سيحدث ذلك إلا من خلال التجربة التي تدفعنا نحو تحقيق الحب الذي لا بدّ أن يكون نقيًا والأهمُّ أن يكون متبادلًا".

هذه الكلماتُ التي تخرج من فمها تكوِّن لديّ ما لا أريد أن أقاومه من حنانٍ جارفٍ نحو أعتاب حياةٍ جديدة، أنظر نحو عينيها الملتهبتين بشعلة العواطف، لقد تبادلنا في هذا الصُّبح الكثيرَ من المشاعر التي يمكن اعتبارُها ثقةً كبيرةً ستخوِّلُنا لبناء حياةٍ مختلفةٍ باختلاف دواخلنا عن ماضيها، الوقت يمرُّ ببطءٍ، أرهقنا تأمُّلُ بعضنا البعض في وضعياتٍ مختلفة، في هذا الوقت من اليوم لا يمكنُ اعتبار القرب الجسدي إلا جنونًا، أتأمّل يديها من بعيدٍ يغرقهما الندى من ماء جسدها الذي لم يتبرّم بعدُ من

سيطرة الحَر، طال جلوسها على الكرسي وطال وقوفي أيضًا، أخذتُ الأرض مجلسًا ثم طلبت منها أن تبحث لي عن سيجارة، ذاك الطلب ليس غريبًا عليها لأنها قد دخّنت مرةً أمامي، نهضت عن كرسيها من دون أن تعطيني إجابةً أكيدةً، ذهبت نحو المطبخ وغابت قليلًا ثم عادتْ وبيدها علبةٌ كاملة من السجائر بطعم النعناع، ناولتني إياه ثم عادت إلى مكانها، أشعلتُ واحدةً بلهفةٍ، كانت أنفسه بعيدةً كل البعد عن طعم التبغ المعتاد، ثم قلت لها:

- "*متى سنخرج من هنا؟*"
- نظرتْ نحوي بارتيابٍ ثم قالت: "*أنتَ من سيحدِّد ذلك*"
- شعرتُ حينها ببعض الحسرة المبطّنة داخلها وعليهِ اقتربتُ نحوها على نفسِ هيئة جلوسي كأنّ أحدًا من البشر يناظر القمر العالي: "*إنها فكرتك التي آمنتِ بها، علينا المحاولة والمجازفة وسنكون على ما يرام، ثقي بي، إنها المرة الأولى التي أشعرُ بها أن الأمر سينجح وسيُنتج بعد ذلك عظمةً داخليةً لِكلينا*"

- نظرت إليّ بعيونٍ ماطرةٍ حنانًا وقالت: "*أجل سننجح، المهمُّ الآن أن نخرج من هنا*"
- قلت:"سنخرج في منتصف النهار، إنهم معتادون على أخذ القيلولة في ذاك الوقت، كلُّ ما علينا هو السّرعة"، وافقتني الرأي من دونِ أن تتكلّم بل اكتفت بهزِّ رأسها، التفتُ حولي فلاحظت الحقائب، أشرت إليها بإصبعي وقلت:"*ماذا عنها؟*"
- ردّت عليّ بعد تأمّلها فيهم ثم قالت:"*سنأخذها معنا*".

استطاعت أنظارُها أن تستوعب كلّ ما يدور حولها ولم يكن هناك داعٍ للتأكيد أو إضافة أمرٍ ما، كلانا يعرف ماذا عليه أن يفعل مع اقتراب الوقت المنشود.

(6)

نزلت السيدة في جولةٍ تفقُّديةٍ للتأكد من أنّ الممر خالٍ ثم عادت ووجهها ممتلئٌ بالحماس، حملتْ ما استطاعت من الحقائب وتركت البقية لي، سارت أمامي بمثابرةٍ وكنت خلفها كأنّ الأدراج تسير بنا وحدها بانتظامٍ جديد، الممرُّ خالٍ والحياة في الخارج شبه خاليةٍ أيضًا، أسرعنا حتى تعدَّيْنا المدخل الرئيسي ثم رحنا نهرول بتعبٍ شديدٍ حتى توقفت هيَ رغمًا عنها ولم نكن وقتها قد ابتعدنا مسافةً كافية تخوِّلنا للوقوف، همست لي ويداها على ركبتيها وقالت:

- *"أنا تعبت"*

- رددتُ بصوتٍ ممزوج بالأنفاس القوية:*"وأنا أيضًا، لكنّ المكان هنا ليس آمنًا للاستراحة، علينا الاستمرارُ"*.

كدنا أن نصلَ للكرسيِّ المظلل الذي كنت أجلس عليه قبل ذلك، طلبت منها أن تترك الحقائب وأن تسبقني إلى هناك قبل أن يأتيَ أحدهم ويجلس عليه، نظرتُ حولي، سأمشي نحوها بإرادتي

كما أني أحملُ حقائبها بإرادتي، لن أتوقّف، هذا كل ما في الأمر على المرء أن يستمرَّ بما بدأ! وصلت إليها بعد جولتين من نقل الحقائب وجلست جانبها بتعبٍ واضح، نظرتْ إليّ وراحت تضحك بشكلٍ غير معتاد وتحاول أن تداري ضحكتها بيدها لكنّ الأمر خرج عن سيطرتها مما استفزّني، رددتُ على ضحكاتها بمعالمَ مستغربةٍ تبعها تساؤلٌ جديٌّ عن الذي يضحكها، استمرّت في الضحك لدرجة عدم قدرتها على تجميع الجملة ثم قالت: "*لا أعرف، صدقًا لا أعرف*"، نكهة الانتصار رغم خسارتها للعديد من الأشياء والأهمُّ من ذلك خسارتُها لاستقرارها كانت تضحكها مما أصابها بنشوةٍ تبيّنت لديها بعد تأكُّدها من تمام الأمر الذي اقترحَته وأرادَته.

إنها تملك روحًا جميلةً لا يمكنني التوقّف عن تأمُّلها والخوض فيها أكثر لكن لن أُشعرها بأني متأمِّلٌ لروحها وأعلم أحياناً طرق تفكيرها، سأدعها تخطّط وتفعل ما يمكن لها أن تفعله بكلّ إنصاتٍ، قالت:"*هل سنبقى هنا كثيرًا!*" ثم نهضت فجأةً

ووقفت على ناصية الشارع تراقب المركبات بدقّةٍ ثم بدأت تشير بيدها للسيارات، مرَّ العديد من السائقين ولم يتوقّف منهم أحدٌ مما دفع بها للعودة إلى أدراجها خائبة، نهضتُ أنا وقت وصولها وأخذت مكانها على الناصية، أقبلتْ من بعيدٍ سيارةُ أجرةٍ تسير ببطءٍ فأشرتُ له بإلحاحٍ حتى توقّف، تسمّرت مكاني أقلّبُ أنظاري بين السائق والسيدة التي أخذتْ وقتًا حتى نهضت من مكانها، أقبلتْ على السائق بكسلٍ وبعد لحظاتٍ أشارتْ إليّ دون أن تتكلّم، صعدت هي بالسيارة تاركةً حقائبها لي، حملتُ الحقائب إلى المركبة ثم صعدت جانبها، لم تكن وجهتُنا بعيدةً لوصولنا إلى محطة المترو، تناولتْ من جيبها الصغير قطعةً نقديةً واحدة وناولتها للسائق ثم نزلتْ ولحقت بها، تقاسمنا الحقائب من جديدٍ ونزلنا نحو المكان الخاص بشراء التذاكر، تناولت من جيبها مجموعةً من الأوراق النقدية ثم قالت للرجل الذي يعمل هناك: "*أريد تذكرتين إلى العاصمة*"، قالتها وهي تنظر إليّ، كانت تودُّ أن ترى ردة فعلي على المكان، لم يشكّل لديّ فارقًا فضلّت معالم وجهي على ما هي، تناولت التذاكر والتفتت نحوي وقالت:

- *"ما رأيك بالعاصمة؟"*
- أجبتها بمواساةٍ: *"كنتُ أسكن بها قبل مجيئي للعمل هنا وليس لديّ مشكلةٌ بالعيش فيها"*، كان السّيرُ معها بمثابة الاستدلال على التّيه لذلك تابعنا السير للنقطة التي سيتوقّف عندها الميترو، لم أُلاحظ وقتها إلا اصفرار وجهها الذي أشعر به أيضًا على وجهي كما أنّ أطرافها ترتجف بالخفية وتحاول هي أن تخبِّئ يدها عن الثبات الذي سيفضح تلك الرجّة، خطر ببالي وقتها سؤالٌ زادتْ أهميةُ طرحه في ذاك الموقف فقلت لها: *"إننا في أمانٍ الآن، سنكون بخيرِ حال ركوبنا"*، لم أَفتح لها المجال للردّ فطرحتُ السؤال بسرعةٍ: *"أتعلمين لم أعرف عمرك إلى هذه اللحظة؟! لم يخطر في بالي هذا السؤال لكنه الآن حَضرَ، أظنُّ أنّ عمركِ أكبرُ من عمري، في العقد الرابع ربما!"*
- تبسَّمتْ لتستعدّ للإجابة فقاطعتُها: *"لم أسأل عنه لغايةٍ معينة لكنّ الأمر سيزدادُ استقرارًا بيننا"*، قالت: *"لا بأس بسؤالك مع أنني لو كنتُ مكانك ما سألتُ عن ذلك أبدًا! أنا*

في نهاية العقد الرابع سأدخل بالخامس عمّا قريب، أكره هذه الفكرة والمعاني التي تجرفها من ألمٍ وحسرة رغم ذلك يجب على المرء أن يؤمن بفلسفة الأعمار وأن هناك وقتًا عنيفًا قادمًا ستفقد فيه القدرة على عدِّ سنواتك وستعرف من الآخرين كم قطعتَ منه الى الآن هذا في حال كان لكَ من يحفظ عمرك ويحدِّثُه في ذاكرته باستمرار". توقّعتُ وقتها أن تسألني نفس السؤال لكنها لم تسأل بل انتهى الحديث بمجرد سكوتها، أعلم أنها تريدُ أن تعرف ذلك لكنها لن تسألَ عنه أبدًا، سيجد كلانا وقتًا مناسبًا لذلك.

مضى على وقوفنا بعضُ الوقت ممّا دفعها للالتفات نحو رجلِ التذاكر وراحت تستفسر منه عن سببِ تأخّر الميترو فردّ عليها ببرودٍ: "*لقد أتيتم باكرًا*"، كان استفسارُها يقترب من الصُّراخ، بدا وجهها أكثر اصفرارًا وكانت قدماها تتحركّان في مكانهما بحركاتٍ غريبةٍ، وضعت حقيبةً فوق أُخرى كي تجلس عليها، جلستْ في عجزٍ ونزعت فردةً من حذائها وراحت تدلّكُ

أطراف قدمها ممّا رسم على وجهها معالم التألُّم، أقبلتُ عليها وسألتها إن كانت بخير فأجابت بنعم، بدأ المكان يمتلأُ بالناس مما زاد الأجواء اختناقًا، كانت أصوات النساء تتعالى وتختلط بتفوُّقٍ واضحٍ مع أصوات الرجال أما نحن فالتزمنا الصمت والإنصات واختلاس النظرات من بعضنا بين الحين والآخر، فجأةً بدأت أصوات الناس بالانخفاض وأقبل صوتٌ يتعالى بشكلٍّ تدريجيٍّ حتى غطّى على بقية الأصوات، صوتٌ يرافقه الميترو نحونا بتباطؤٍ حتى توقّف بشكلٍ كاملٍ فعاد صوتُ الناس إلى حاله الأول مقبلين نحوه بلهفةٍ وحذر، مددْتُ يدي للسيدة كي تنهض، مدَّتْ يدها مع ضحكةٍ مفرطةٍ دفعتني للضحك، أبقيتُ يدي في يدها حتى وصلنا للباب حيث أفلتتْ يدها وأشارت لي نحو الحقائب، وعليه عدتُ لوضعها في مكانها المخصص ثم دخلت باحثًا عنها، أظن أني كنتُ آخرَ من يركب حيث أنّ الناس غمروا المقاعد والممرّات ثم تشبثُّوا بها، أصابني الخوف وبدأت الفرضيات تُنتجُ نفسها وتتكاثر، لم أجدها بين زحمة الآخرين بل وجدتُ النظراتِ التي تحيط بي من كلِّ مكان، نظراتٌ عادية وأخرى مريبةٌ تغطّي

الممرَّ الطويل كلَّه الذي عليَّ أن أصل لنهايته بحثًا عنها، اقتربت من نهايته وفجأةً خرجت يدٌ من بين السُّكوت تلوِّحُ من بعيدٍ، دقّقتُ النظر بها، كانت هيَ، فأسرعتُ نحوها بفرحٍ كالتائه الذي وجد ضالّته بعد عناءٍ، قد حجزتْ لي مكانًا بجانبها بوضعِ يدها على الكرسي والتلويح بالأخرى، كانت قد بدت عليها معالم الراحة التي افتقدتها منذ قليلٍ، انطلق المترو وكان كلُّ شيءٍ داخلي ينطلق معه إذ صبَّ عليّ احساسٌ جديدٌ كأن تحاول طلاءَ غرفةٍ أصابها حريقٌ بالألوان الخشبية!

حاضرٌ غير مؤكّد

(7)

هذا صباحٌ مألوفٌ بعد غياب الإعياء لمدّةٍ، عاد اليوم، أشعرُ أني مريضٌ بشيءٍ من الحُمّى، كانت الليلةُ الماضيةُ مرهقةً وفي غاية البرودة، عاد الشتاء القارس وعاد معه تكاثف الأمراض المتناقلة عبرَ كآبة هذا الفصل، إنه أمرٌ مرهق أن تكون فصول السنة جميعُها متعبةً للإنسان وأيُّ إنسانٍ هذا، إنه الشكَّاء والبكَّاء من كل شيء! هذه العاداتُ التي لا يستطيع الآدميُّ العيش دونها ولا يخلو الأمر لديَّ أيضًا، لكني عزمتُ على حصر الشكوى داخلي حتى وإن أذابتْ صدري ولن أمتنَّ لنفسي التي اشتكت في يومٍ ما إذ إنها المفتاحُ الذي فتح عليَّ ما أنا به الآن.

لقد ماتت السيدة! أيّ نعم ماتت بعد مدّةٍ أكادُ أنساها، أظنها أربعين يومًا من وصولنا إلى هنا، وهذا ما سيحصلُ لي أيضًا

ذاك الذي حدث تمامًا حيث أخذ الموتُ أصوله بشكلٍ مطلق، كان اصفرارها يزداد في كلِّ يوم وبات التعبُ زوجًا وفيًّا لها لا يفارق قدميها مروراً نحو رأسها، كانت تختبئُ وراء المرض الذي اختبأتُ أنا دون علمي وراءه، لا أظنُّ أني سأخرج من ذاك الإطار المحسوم بموتها والمكوّن من وحدتي الجديدة، أفعالُها الكثيرةُ معي لم تؤثِّر على فعلٍ عظيمٍ قالته لي قبل موتها بوقتٍ قليل، قالت أنّ بسببي موتُها لن يكونَ كما خطّطت له، لن يكون بسلامٍ ووحدة، هروبُها من الحياة السابقة ما كان إلا هروبًا لانتظار الموت المؤكّد والموثّق في السجلات المخبرية والأوراق الطبية، لم أكن أعلم أنّ الحياة الحقيقية في الجهة الأخرى يلزمُ انتظارُها بصبرٍ وأناقة ولم يكن الموت بالنسبة لي كيانًا مُنتَظرًا وآتٍ على مزاجه حتى وإن استدعيته آلاف المرات.

إنّ حياتي اليوم مستمرّة ولم أكن في هذا العزمِ عليها من قبل، ذاك الانسان الذي أعتقد للآن أنه مدينٌ بالجزء الأخير والمتبقّي له من عمره جعلَ مني شخصيةً هدّامةً للمبادئ التي

كنتُ أعتقد بها وعليه قوّضها الإنسان الكامل لولا الموت بأمورٍ أخرى تبتعد وتهرب من كلِّ ما نزفتُه في عمري السابق، أنا اليوم أخشى الموت كثيرًا وهذا بحدِّ ذاته تغيّرٌ مستبدٌّ فيَّ وأخشى أيضًا أن أعيش وحيدًا من دونِ قلبٍ نابضٍ يؤرِّخ أيامي بالعاطفة، تُدغدغني عاطفةٌ مُميتةٌ تكرِّرُ التساؤل فيَّ، يا تُرى كيف لي أنا التّالف أن يغزُوَني هذا الهيج من العنفوان؟! ظننتُ كلَّ الظن أنهُ تجمهرٌ لجملةِ عصافيرٍ حولَ إيناءٍ عميقٍ وفارغ لكنَّ جوهر الماضي القريب الذي عشتُه حوّلَ الفراغ والألم إلى تعزيز جهدي المبذول للعيش بالإضافة إلى السّماح لكافّة الأمور الممكنُ حصولها أن تأخذَ مجدَها داخلي، أنا اليوم أجتمعُ وأجمِّعُ كلَّ ما يعنيني تحضيرًا لموعد الاندثار الكبير.

هذا وجهي الجديد، لا بدَّ أن يكونَ بهذهِ الهيئة، وجهٌ مستمرٌّ في التعجُّب الكبير من أخذِ الأحداث مجدَها معي بعد تبرُّمي الذي استمرَ طويلاً من قلّة حدوثها، لكنّ الأمر تغيّر! ولم يأتِ تغيُّرهُ كما كنتُ أنتظر بل أتى عجيبًا رغم إدراكي له مسبقًا من خلال التاريخ

الذي عرّف البشريةَ بأغلب الأحداث التي من الممكن أن تحدث، ما من حيلةٍ أخرى سوى الإنتظار وعدم التكهّن بالقادم والمحاولة الجادّة لمحوِ ما هو مدكّنٌ في الذاكرة.